المكتبة الثقافية

٤٨٧

الفلسفة المصرية
شروط التأسيس

عزت قرنى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٢

الاخراج الفنى : عمر حماد على

مقدمـــة

كل فكر مصرى هو بالضرورة ، من جانب أو آخر ، على مستوى أو آخر ، فكر للثقافة الجـــديدة ، ثقـــافة المتكلمين بالضاد من المحيط الى الخليج ، لأنه أولا مكتوب باللغة العربية ، وكل ماهو مكتوب بها أصلا موجه لكل أصحابها والمتكلمين بها جميعا ان بالقصد المباشر أو غير المباشر ، ولأنه ، ثانيا ، أى كل فكر مصرى ، تعبير عن مصر ، ومصر قائمة فى قلب عالم تلك الثقافة الجديدة التى هى بسبيل التشكل وبسبيل البحث عن هويتها ، ومصر قد اختارت ، ارادة وواقعا ، فى عصرها الحديث ، وعلى نموذج عصورها الاسلامية ، أن تكون على ارتباط عضوى حميم بالتجمعات البشرية المحيطة بها والداخلة معها فى

اطار ثقافى موحد ، كان الاسلام بالأمس ، وهو اليوم ارادة العيش المشترك فى ثقافة مشتركة من أجل مصالح حيوية جماعية • من هاتين الناحيتين ، فان كل فكر مصرى هو فكر للثقافة الجديدة النامية بلغة الضاد •

ولكن مصر ، أيضا ، « ذات » ، وذات عظيمة فريدة ، لها أقدم حياة وأسبق تاريخ ممتد بين الكيانات والتجمعات البشرية القائمة على ظهر الأرض اليوم ، وأهل مصر،على مر الزمان ، اشد الناس تمسكا بمصرهم وبأرضهم ،ومحبة لهما وحرصاً عليهما ، حتى وان عاشوا على أرضهم حياة ضنكا كما حدث فى العقدين الاخيرين ، وهم يتمنون دوما، ومنذ جدنا سنوحى وقبله ، ألا يفوتهم حظ العودة اليها ان ابعدتهم طرق الحياة عنها ، وليس من أمنية حميمة فى قلب كل واحد منهم أدق ولا أثبت من أن يموت عليها وأن يدفن فى ترابها • فمن الطبيعى اذن أن يكون هناك فكر مصرى يكون لمصر أولا • أضف الى ذلك خصائص وضع مصر من شتى الجوانب ، وفيه ماهو ميزية وفيه ماليس كذلك ، بحيث ان هناك مشكلات مصرية نوعية تختص بها مصر ، ولا توجد عند اخواننا فى المغرب أو اليمن أو سوريا أو غيرها ، وهى تقوم الى جوار مشكلات عامة تجابه مجمل مجموعة الثقافة الجديدة •

ذلك هو جدل الخاص والعام • فمن يطلب الى مصر الا تفكر فى ذاتها ولنفسها حائد عن جادة الصواب والحق،

ويظن أنه كاتم لأنفاس الذاتية وهيهات له ذلك ، ومن يطلب الى مصـــر ألا تفكر الا لذاتها مخطيء لايدرك الوقـــائع والضرورات ، ولايراعى مصالح مصر الحيوية وواجباتها • والموقف السليم هو الجمع بين الذاتية والمشاركة ، بين الخاص والعام • وهو ، على كل حال ، موقف تفرضه الحياة الانسانية ذاتها : فانظر الى نفسك تجدك مجبرا على رعاية شئونك من حيث أنت فرد محدد ذو هوية وتاريخ وخصائص (وهل من يجوع لك أو يرتوى ؟ أو يتألم بدلا عنك ؟) ، وذلك فى نفس الوقت الذى ترعى فيه شئون أسرتك المباشـــرة بالمعنى الضيق ، فأنت أنت وأنت كذلك عضو فى أسرة ، ثم فى جماعة أعم وجماعات • وسوف يجد القارىء فى هذا الكتاب مصداق هذا الموقف المتوسط بين التفريط فى انكار الذات والافراط فى اثباتهـا ، ففيه مما هو مصرى نوعا (وبعضه سيوجه اليه المؤلف أقسى سهام الانتقاد ، ويتمنى مخلصـــا ألا تعدى الجمـــاعات الشقيقة بمثل ما استحق هذا الانتقاد) ، وفيه ماهو عام ومشترك بين مجمل أوضاع الثقافة العربية الجديدة •

ان هذا الكتاب ، فى جوهره ، دعوة الى الابداع التأسيسى : من ابداع فلسفة جديدة ، الى ابداع مجتمع جديد الى ابداع ثقافة جديدة ، الى ابداع توجه جديد نحو الانسانية والعالمية الحقتين • وهو أيضا ، ولنفس الأسباب ، تنبيه وتحذير من الاســـتمرار فى طريق فناء

الذاتية ، بالوقوع تحت العجـــلات الحديدية التى لاترحم لدعوى العالمية الغربية الزائفة ، وتنبيه وتحذير من الضياع المساوى عملا للفناء ، بالتيه فى فراغ نزعة ماضـــوية ساذجة تفتقر الى الحس التاريخى • واذا أنت جمعت بين هذين الموقفين معا ، قلت ان هذا الكتاب دعوة الى التوجه الى الوجود مباشرة بغير وسيط ، وأنه من ثم دعوة الى الجسارة المتمكنة الرشيدة •

ان هذا الكتاب بيان واعلان ودعوة ، فهو يشير الى اتجاه الطريق ، ولكنه لا يفصـــــل (بل ولايملك مؤلفه) وصف ذلك الطريق ، وهو يشـــير الى الأخطار ، ولكنه لا يستطيع ، بحكم حيزه ووظيفته ، أن يسهب القول فيها • انه ، فى الحق ، تمهيد لكل فلسفة مصرية مســـتقبلة ، وبالتالى فانه تأسيس جزئى للبناء المقترح للثقافة العربية الجديدة ، وللأمة الجديدة التى ستكون صاحبة تلك الثقافة الجديدة • انه لا يحتوى على عرض لمضمون فلسفة جديدة، ولكنه يقدم ما نعتبره الموقف الاطارى الضرورى الوحيد اللازم لاقامة أية فلسفة ، بل فلسفات ، جديدة حقة •

وليس هذا البيان وليد اليوم ، بل هو يحتمل افكارا منذ اكثر من ثلاثين عاما ، وأشـــرنا الى بعض مواقفه الجوهرية منذ عام ١٩٦٢ م • (انظر ص ٨٤ ، هامش ٢ ، فيما يلى) ، وشرحنا بعض جوانبه فى لحظات سريعة فى

محاضراتنا بكلية الآداب بجامعة عين شمس ، حتى كان أول تحرير مبدئى لقضاياه الكبرى فى دراسة أعدت فى أوائل عام ١٩٨٣ م للكتاب التذكارى الموجه تحية من كلية الآداب بجامعة القاهرة الى الأستاذ الدكتور مصطفى سويف (لم تنشر بعد) • وصلب هذا البيان هو الدراسة المعنونة « الابداع الفلسفى وشروطه » ، والتى كانت قد أعدت للاصدار الخاص بـ « جماليات الابداع والتغير الثقافى » من مجلة « فصول » (المجلد السادس ، العدد الرابع ، سبتمبر ١٩٨٦ م) • وتليها دراستان اخريان تكملان بتفصيل أوسع بعض قضايا الدراسة الأولى ، حيث تعرض دراسة « أزمة الحضارة الغربية » لبعض طرائق توصيفها ولبعض جوانب التدليل عليها ، وهى تعتمد على محاضرة عامة ألقاها المؤلف فى الموسم الثقافى لكلية الآداب بجامعة الكويت ، فى اكتوبر ١٩٨٧ ، أما الدراسة الثالثة ، « اعادة اكتشاف الثقافة اليونانية فى الوعى المصرى الحديث » ، فانها قد يبدو وكأنها تتناول موضوعا هامشيا بل وأكاديميا ، ولكنها فى الواقع تنطلق ، ابتداء من هذا الموضوع ، لتجعلنا نضع أيدينا على صياغة محددة لسؤال : ما علاقتنا بالثقافة الغربية ومن ورائها الثقافة اليونانية ؟ وهى تقترح الاجابة المتناسبة مع خط مواقف الدراسة الأساسية الأولى • وهذه الدراسة الثالثة كانت موضوعا لمحاضرة فى المؤتمر الأول للجمعية المصرية

للدراسات اليونانية والرومانية ، والذى انعقد بالاسكندرية فى ديسمبر ١٩٨٦ م ٠

ان هذا الكتاب اقتراح بالحد الأدنى الاطارى لقيام كل فلسفة مستقبلة لنا ، بل ولقيام ذاتيتنا الجديدة ٠ انه دعوة الى إعادة التفكير بشأن كل شىء ٠

الابداع الفلسفى وشروطه
نظرة الى المحاولات
واستشراف للمستقبل

الابداع الفلسفى الذى نقصده هو الابداع الفلسفى فى مصر • وسوف نقدم أولا بحديث سريع عن الابداع ذاته ، ممهدين فيه لما سنتناوله بالتفصيل من بعد فلسفيا ومصريا، ثم نعرض لمشكلة الابداع الفلسفى فى مصـــر والوضـــع الفلسفى فيها ، ثم نعـــرض لبعض محاولات الابداع بها وللفروض التى تطرحها هذه المحاولات ، ثم نخصص القسم الرابع لشروط قيام ابداع فلسفى مصرى على الحقيقة ، ونختم برؤيتنا للمستقبل لنجيب عن سؤال : ماذا نريد ؟

اولا : فى الابداع

١) الماهية :

١ ـ ان ظاهرة الابداع أهم وأجل من أن تترك للدراسة الحرفية السيكولوجية وحدها ، برغم اسهامات السيكلوجيين العظيمة فى هذا الميدان ، ومنها اسهام المدرسة المصرية بخاصة ، بقيادة الأستاذ الدكتور مصطفى سويف • ذلك أن الابداع يخص فى الصميم كل الانتاج الثقافى ، بل كل النشاط الانسانى بعامة ، وهو فى الواقع الهدف الصريح أو الضمنى وراء انتاج الفلاسفة أو الفنانين أو العلماء أو الكتاب على تنوع ميادينهم • ولهذا فاننا لا نتردد هاهنا فى وضع بعض التحديدات ، والاشارة الى بعض العناصر التى نعدها جوهرية فى ظاهرة الابداع •

٢ ـ يمكن أن نقول ان الابداع هو رؤية فى شكله الادراكى ، وهو مبادرة فى شكله النشاطى أو الفعلى أو العملى ، وجوهره من هذه الناحية أو تلك أنه تجديد ، فيمكن أن نقول اذن ان الابداع رؤية ومبادرة وتجديد •

٣ ـ ولن نتوقف هنا عند بالمشهور بين العموم من أن الابداع هو ضرب من النعمة أو هو موهبة ، وما يقابل هذا وذاك من الاهتمام بالجهد وبالتدريب الى درجة وأخرى ، ولا عند المصطلحات التى تدور حول « الابداع» وتصاحب

الحديث عنه ، من مثل الذكاء والنبوغ والابتكار والاختراع والخلق والعبقرية ، وانما نريد أن نقصد مباشرة الى فكرة « الرؤية » • فالابداع رؤية بمعنيين ، أحدهما عام ، والآخر اضيق • فالابداع رؤية من حيث هو ادراك ، وهذا هو المعنى العام ، ولكنه على الأخص ادراك نافذ ، وهذا هو المعنى الضيق للرؤية الابداعية •

٤ ـ ومن حيث هو ادراك فانه فى المحل الأول ادراك للكل ، أى ادراك كلى لموقف ما ، أيا ما كان المجال•ويعنى هذا ـ أول ما يعنى ـ أن تكون هناك سيطرة على تفصيلات الموقف ، مع بروز الكل فى الوقت نفسه • ويكون الكل المقصود هنا هو « كل العلاقات » ، أى العلاقات بما هى مجموع متسق يكون « كلا » • وهو يعنى ـ ثانى مايعنى ـ أن فعل الابداع بوصفه « رؤية » يتقدم على هيئة اعادة تنظيم لعناصر الموقف ، فلا يكفى ادراك الموقف والسيطرة على تفصيلاته وادماجها فى كل ، فالأهم من ذلك هو تعدى القائم واعادة تنظيم العناصر ، وهو مايكون أبرز سمات الابداع على الاطلاق • بعبارة أخرى ان جوهر فعل الابداع هو اعادة تكوين الواقع ، وهو ماينتهى الى تغيير النظرة الى الكون ، على أى معنى تفهم به كلمة « الكون » هذه •

٥ ـ قلنا ان الابداع رؤية بمعنى الادراك النافذ • وربما كان أول ملامح هذا النفاذ هو ما يمكن أن نسميه «بالشعور

بالبراءة » ، أى كان المبدع يدرك الموقف القديم لأول مرة ليرفضه ، ويدركه بعد اعادة تنظيمه من جديد ليكون أول المدركين له ، كانه لم تكن له به من قبل خبرة . ومن هنا يأتى معنى « البراءة » . ويتصل بهذا الشعور بالبراءة الشعور « بالطازجية » ، أى ببطانة شعورية مصاحبة لفعل الادراك الجـــديد ، تقوم فى الوعى بالجدة . وبأن هذا الادراك ، لأنه لم يسبقه مثيل ، « طازج » نضر ، ولا نملك هنا غير التشبيهات .

٦ ـ ولكننا قد نقول ، مستخدمين هذه المرة لغة أكثر دقة ، ان الادراك النافذ يعنى الرؤية « الجوهرية » للموقف، أى ادراكه فى جـــوهره ، بمعنى علاقاته وخصــــوصيته ومغزاه معا ، فالابداع ليس مجـــرد ادراك جديد ، أى مختلف ، بل هو ادراك جوهرى ، أى قل فى تعبير آخر ان فعل الابداع يظهر بمظهر النفاذ لأنه ادراك للمنطق الذى يحكم الظاهرة أو الموقف . ان الابداع بصيرة نافذة سلبا وايجابا : السلب لأنها تحكم على الموقف القائم بالترك ، وهو ما يعنى الادانة ، والايجاب لأنها تهيىء للمســـتقبل ممثلا فى موقف جديد ، وفى كلا الحالين يكون هناك تغيير للنظرة الى الكون (وسنرى من بعد أن الابداع الفلسفى الحق لابد أن يحكم على التراث والموقف القائم وأن يقومهما من جهة ، ليهجر هذا على نحو ما من الهجر ، وليتعدى ذاك بالضرورة ، وليتجه فى نضارة النظرة الى تصـــور

نظام جديد من الأفكار • ونحن نستعمل كلمة نظام هنا فى أعم معانيها واكثرها اساسية) •

٧ ـ ان الابداع يؤدى فى الواقع الى كون جديد ، سواء كنا فى ميدان العلم الطبيعى أو فى ميدان الفلسفة أو ميدان الدين ، أو كنا نشير الى لوحة أو تاليف موسيقى أو قصيدة شعر ، فكل من هذه المنتجات تكون « كونا » كذلك ، وتدخل الفنان من جهة ، والمتذوق من جهة اخرى ، فى « كون جديد » ليس هو الكون المعتـــاد • ومن هذه الزاوية فان الابداع هو أيضا نظرة الى امام ، وما أصعب تعدى الواقع ! وما أندر القدرة على ادراك المختلف ! ومن يقول « النظرة الى امام » يقول اذن فى الآن نفسه « بتعدى القائم والســـابق » ، وكأن الابداع فرار من المألوف ، و « اختراق بالخيال » الى عوالم جديدة جدة تامة (بالمعنى النسبى لكلمة « تامة » فى معظم الحالات) • ولعل العناصر التى أشـــرنا اليها أن تكون دليــلا للتمييز بين الابداع الشكلى ، أو المظهرى ، والابداع الحقيقى •

٨ ـ أخيرا فان مفهـــوم « الرؤية » يؤدى الى نتيجة مهمة ، ألا وهى أن الابداع هو فعل شخصى دائما ، أى يقوم به شخص بالضرورة ، وهذه هى القاعدة العامة ، وليس عليها الا أندر الاســـتثناءات (مثل حالة الأخوين جونكور فى الأدب الفرنسى فى القرن التاســـع عشـــر الميلادى) • ومع ذلك ، فان هذا « الشخص » ليس « فردا »

دائما فى كل الأحيان ، وهو فى ميادين الابداع ذات الطابع الاجتماعى بالضرورة ، من مثل الابداع الفلسفى والدينى والسـياسى وماشـابه ذلك ، يصبح أقرب مايكون الى « الشخص العام »، ان أمكن استخدام هذا التعبير ، أى الفرد الذى لا يعبر عن نفسه الخاصة بقدر مايعبر عن روح الجماعة التى ينتمى اليها (وسنؤكد من بعد أن الاطار الضرورى للابداع الفلسـفى المصـرى ينبغى أن يكون الوطنية) ، أو كائنه ، فى أحيان أخرى ، معبر عن استجابة شبه قهرية لمتطلبات منطق حركة الموقف الذى يوجد فيه ٠

٩ ــ تحدثنا فيما سبق عن الابداع من حيث هى رؤية ، أما عنه من حيث هو « مبادرة » ، فان أول الكلام ينبغى أن يكون بالاشارة الى كون الفكر قصديا دائماً ٠ ولنفهم هذا القول هنا على أنه يعنى أن الفكر هو دائما استجابة لفعل من أجل الوصول الى هدف ما ، فلا وجود لفكر معلق فى الهواء ، أو فى الفراغ ، وانما الفكر دائما يقصد الى معنى ما ، والى تحقيق غرض ما ، أو فلنقل ان الفكر يكون دائماً فى موقف ، وغالبا ما يظهر الابداع ابتداء من موقف يتخذ هيئة المشكل أو الصـعوبة التى لابد من تعديها ٠ والواقع أن « روح الاشكال » ، وهى ضرورية من حيث هى خلفية سـلبية للابداع ، ونعنى بها الميل الى ادراك المشـكل فى الموقف ، لا تتوافر لدى الكثيرين ، لأن الميل الغالب هو الى قبول الموقف والتكيف معه بوصفه ضرورة

قد قضى بها ، وفى هذا بعض الراحة • ولكن المبدع رجل (أو امرأة) متاعب (والقــلق هو من أخص المميزات الشخصية للمبدع) ، وليس من السهل فى كل الأحوال أن تتكون لدينا روح الاشكال ، بخاصة فى ظل نظم تربوية ترسخ فى النفس الخضــوع والخنوع ، وهو مايعنى فى النهاية « اللافعل » ، فى حين أن الابداع فى الحقيقة هو « الفعل » الأعظم والمرسس لكل ماعداه • وليس أدل على هذه الواقعة ، أعنى ندرة روح الاشكال ، من أن الابداع فى بعض مظاهره ، هو « خـــروج عن الخط » خـــروجا ملحوظا ، أو هو — صراحة — معارضة للســلطة وارادة لقلبها ليكون المبدع هو السلطة الجديدة أو مصدرها على الأقل • وطبق هذا على التجديد فى الشـــعر والموسيقى والتصوير والنحت ، أو طبقه على اخناتون وعيسى المسيح، أو على الشيخ رفاعة الطهطاوى ومحمد على باشا ، فستجد تحقيقا لما نقول • ولعل أوضح موقفين فى تاريخ الابداع المصرى الحديث يشخصان هذه الفكرة هما موقف الشيخ محمد عبده من رجالات الأزهر فى عصره من جهة ، وموقف صلاح عبد الصبور وزملائه من عباس محمود العقاد من جهة أخرى (وقارن أيضا موقف العقاد نفســـه وزميليه شكرى والمازنى من المدرسة الشعرية التى كانت مسيطرة أيام شبابهم) • ومادام الابداع يكون دائما فى موقف ، ومادام شرط ادراك الاشكال شرطا جوهريا لقيامه ، فانه « فعل » بالمعنى الدقيق ، ومادام فعلا لقلب الموقف (واعادة

تنظيم عناصره ـ كما أشرنا من قبل) ، وتأسيسا لسلطة ، فانه اذن مبادرة · ان الابداع يبدأ دائما من الشعور « بالحصار » ، وهو استجابة جوهرها تعدى الحصار ، سواء كان ذلك بهدم أسس الموقف ، أو « بالقفز من السور »، أو بصورة أخرى ، وهو فى كل هذا فعل ومبادرة ·

١٠ ــ وهناك مجموعة من صفات الابداع لا تفهم حق فهمها الا فى ضوء مفهوم « المبادرة » ، كما أن هذا المفهوم يعتمد عليها هو ذاته من جهة أخرى · هذه الصفات هى : التأثير الباغت ، الأصالة ، المرونة ، الروح النقدية · ولن نفصل فى هذه الصفات هنا ·

١١ ــ واذا نحن جمعنا سمة المبادرة الى سمة الرؤية النافذة للكل ، بدأ لنا الابداع على هيئة مشروع لتعبئة الطاقات · والأمر كذلك ، سواء على مستوى الابداع الفنى عند مصور أو موسيقى ، أو على مستوى الابداع الفلسفى والسياسى والدينى · ومن هذه الزاوية للنظر يكون الابداع وظيفة اجتماعية حضارية ·

١٢ ــ قلنا ان الابداع رؤية ومبادرة وتجديد ، وكان لابد من الاشارة الى التجديد فى ثنايا الحديث عن الرؤية والمبادرة ، لأنه لا ابداع من غير التجـــديد والتجـديد الجوهرى · والواقع أن المستوى الأول للتجديد هو الاتيان « بالمختلف » ، وفى هذا الاطار نتحدث عن القديم والمعتاد

وفى مقابله عن المختلف والجديد · ولكن الابداع الحقيقى ، كما أشرنا ، هو التجـــديد الجوهرى ، أى التجديد من حيث هو اعادة تنظيم الموقف بما يؤدى الى رؤية جديدة للكل ، أو للمكون ، بما يعنى اقامة كون جديد · والواقع أن التجديد المقصود هو فى النهاية اقامة سلطة جديدة · وليس عجبا بعد ذلك أن يكون الابداع الحق قائدا دائما ·

(ب) عـــــوامل الابداع :

١٣ ــ لن نفصل هنا فى عوامل الابداع ، التى يمكن تقسيمها الى عوامل ذاتية ، أى تعود الى شخص المبدع ، وأخرى موضوعية ، أى مستقلة عن شخصه كثيرا أو قليلا، وتدخل فيها العوامل البيئية ، كما يمكن تقسيمها تقسيمات أخرى ، من مثل العوامل الأصلية والعوامل الفرعية ، الى غير ذلك · ونشير هنا اشـارات ســـريعة الى أهم تلك العوامل ·

١٤ ــ ومن أهم العوامل الذاتية العامة : الوعى بالمقدرة الابداعية عند المبدع (فليس هناك مبدع لا يعى أنه مبدع)، والقدرة على التركيز ، وقوة الخيال ، الى حد توافر القدرة على « الحلم » الى أقصى درجة ، والثقة بالذات ، وتوتر الارادة ، والقدرة على الاستجابة التلقائية ، وما يمكن أن نسميه بارادة التفرد ، أو ارادة الأصالة ــ هذا كله ، الى جـــانب توافر حد أدنى من عامل الذكاء المرتفع · ومن

العوامل الذاتية التفصيلية : مايسمى فى دقة أو فى غير دقة « بحب الاستطلاع » ، والرغبة في الكشف ، وما يواكبه من روح الاشكال ، والميل الى اثارة التساؤلات ، وفوق هذا كله توافر أقصى قدر من الروح النقدية ، والقدرة على الاستجابات غير النمطية ، الى جوار ارادة الاســتقلال والتميز فى التفكير · وأضف الى هذا كله عوامل من مثل القدرة على « النفس الطويل » ، وعلى « تجميع الذات » بازاء مشتتات الانتباه فى العالم الخارجى ، وعلى حسن وضع المشكلات والقضايا ، الى غير ذلك · وأخيرا فاننا نؤكد على الخصوص ، فى اطار العمليات الابداعية ، من دوافعية ومعرفية وارادية ، على تلك الارادية بوجه خاص ، والدوافعية من بعدها ·

١٥ ـ أما العوامل الموضوعية ، فمنها ماهو أقرب الى المبدع وما هو أقرب الى البيئة ، ومن النوع الأول : توافر التدريب الكافى ، والاهتمام بنقطة البداية ، والنجاح فى عبور مراحل التأهل للابداع شــموليا ، والقــدرة على السيطرة على مايمكن أن يسمى بتكنيكات الابداع · ومن النوع الثانى : توافر الظروف المهيئة والمناسبة للابداع ، وفى مقدمتها شرط الحرية ، وسيادة روح التسامح ، وتهيئة الفرصة للتفرغ الابداعى ، والتنظيم السياسى الاجتماعى ، القــائم على التعــددية بوجه خاص ، وتوافر المعلومات بسهولة ، وتحدد الهدف القومى العام الشــاحذ للمهمة

الابداعية ، وتحدد الهوية الثقافية بشـــكل يوجه الطاقة الابداعية على طريق واضح فعال ، الى غير ذلك •

(ج) الصـــــعوبات :

١٦ ـ وعلى الرغم من أن امكان الابداع قائم دائما من حيث هو امكان ، الا أنه اذا لم تتوافر له عوامل الابداع ، وعلى الأخص اذا قامت دونه صعوبات قوية ، حتى فى حالة توافر العوامل ، فان فعل الابداع لن ينمو ويتطور ، ولن يثمر • ونقصد بالصعوبات هنا العوائق أو المعوقات ، وهى أحيانا ما تأخذ شكل « الحجب » • وهناك منها ماهو موضوعى وما هو ذاتى ، وماهو عام وماهو خاص • ومن المفهوم أن أمثال هذه التصنيفات لا يراد بها الا التقسيم المصطنع لحصر عناصر الموضوع ، لأن المواقف الفعلية أكثر تشابكا بكثير من التصنيفات المكتبية •

١٧ ـ ومن المعوقات الموضوعية العامة ، أى باطلاق ، ضغط السلطات القائمة ، ومنها سلطة التراث أو النقل ، والسلطة محافظة دائما ولا تشجع بسهولة على الابداع • وأحد المشخصات الأساسية للســلطة قوة الرأى العام • وليس من السهل قيام حركة ابداعية فى جانب من جوانب الثقافة دون قيامها فى جوانب أخرى ، بل فى شتى جوانب الثقافة مجتمعة ، فيمكن أن نقول ان الابداع « معد » (من العدوى) • والابداع المنفرد غالبا ما تضعف مقـــاومته

وقدرته على الاستمرار · واذا قلبت معظم عوامل الابداع ونظرت اليها سلبا لظهرت على هيئة معوقات · ومن أظهرها طبيعة التنظيم السياسى الاجتماعى للحياة الثقافية ، وعدم وضـــوح الهوية الثقافية ، وغير ذلك · ومن المعـوقات الموضوعية الخاصة بالوضع المصرى ، ضغوط الرأى العام وألسلطات بأشكالها ، وسيادة روح العبودية للســلطات القائمة بأنواعها ، والخطة ، الضمنية على الأقل ، لوأد الطليعة الابداعية ، ولاغراق الامكانات الابداعية فى ضباب اللاشعور ، وفى التفصيلات الجزئية ، وأخيرا وليس آخــرا سيادة سياسة التوجيه والارهاب من قوى عدة فى المجتمع، تؤخذ مجتمعة وفى معظم المراحل · ولا تقل المعوقات الذاتية أهمية عن تلك الموضوعية ، وبعضها هو انعكاس لتلك الأخيرة على المستوى الشخصى · ومن ذلك قبول روح العبودية ، والتنازل عن استقلالية الفكر ، والنزول الى درك « الفكر الارتزاقى » ، وظاهرة الكف الذاتى أو الشلل الذاتى الذى يتلخص فى تصور حكم الرقيب ، أيا من كان ، قبل صدوره ، والخضوع له على الفور ، بما يئد المبادرة ، ويقتل روح الاستقلال ، ويغذى روافد روح العبودية ، ويشل الحركة التلقائية ، ويغل لسان الصدق ·

١٨ ـ ونختتم هذا القسم التمهيدى عن الابداع بعامة بالحديث عن موضوع لم ينل حقه من الاهتمام فى اطار الدراسات التقليدية الا هامشيا ، ونقصد به « اتجاهات

الابداع » ، على أساس أن الابداع فعل يكتسب حركة ذاتية حين يتشكل قواما ملحوظا ، وتكون له اتجاهات هى له من حيث هو ، أى مستقلة عن شخص المبدع ، بل تفرض نفسها عليه فرضا ، ليصبح شـــخص المبدع مجرد منفذ لمتطلباتها فى واقع الأمر · هذه الاتجاهات هى : الكلية الديناميكية ، الجذرية ، الأمد الطويل ، التعددية ، الحرية، الجوهرية ، الهدفية ·

١٩ ـ وينطبق على الابداع المبدأ المهم الذى تقـــول صيغته : « الكل أو لاشىء» ، وهو ما نعبر عنه بصـــفة « الكلية » مأخوذة بهذا المعنى ، فالابداع الحقيقى يمس الميدان كله بالضرورة ، فلا تتصور شاعرا مبدعا حينا ومقلدا أحيانا ، أو فيلسوفا مبدعا فى جانب وتابعاً فى جوانب ، ولا مجتمعا خالقا فى ميدان وتابعا لأسياد فى ميادين · ولاشك أن التطبيق الواضح لهذاالمبدأ يظهر على الأخص فى مجال الابداع الثقافى ، فالثقافات المبدعة ، وليست كل الثقافات مبدعة (راجع الثقافة الكورية وتلك اليابانية التقليديتين بازاء سيادة الثقافة الصينية) ، يظهر ابداعها ، أى أصالتها وتفردها ، فى مختلف ميادينها ، من لغة ودين وأخلاق وســـياسة وفن (راجع حالة الثقافة المصرية القديمة) · ذلك بأن الابداع هو تعبير شمولى عن الذات المتفردة · وفى هذا الضوء يظهر بعض معنى ماقلناه من قبل عن أن الابداع الحق هو مشروع لتعبئة الطاقات

ولنا أن نضيف أن الابداع الحضارى المصرى الجديد بوصفه قلبا لحركة الابداع فى اطار عالم الشعوب المتكلمة بالعربية وشعوب أفريقيا وآسيا ، أو أحد مراكزها الكبرى على الأقل ، ينبغى أن يضع هدفا له ، هو خلق طراز جديد من البشر ·

٢٠ ــ واذا ما تأمل القارىء فى متضمنات حديثنا عن الابداع بوصفه « رؤية نافذة » ، لوجد من بينها خاصية « الديناميكية » ، فالادراك والتغيير والتجديد والتحويل والخلق ، كلها تعنى الحركة الجوهرية الدائبة التصدية المنظمة · فاذا أضــــفت الى هذا جميعه أن الابداع رفض وقبول ، نتج لك أن الابداع ديناميكى بالضرورة · ويعنى هذا ــ ضمن مايعنى ــ أن فعل الابداع ، ما أن ينطلق حتى يستقل نوعا من الاستقلال عن صاحبه ، أو منفذه ، ليكون ذا حركة ذاتية الى حد ما ، أى أنه يتحرك بذاته (مالم تقم فى سبيله عوامل سلبية محطمة) · وينتج أيضا عن خاصية الديناميكية أن الابداع « لا يلتئم طرفا دائرته» الا ببلوغ غايته ، أى بوصول حركته الى مستقرها ·

٢١ ــ و «الجذرية» هى وجه آخر من وجوه «الكلية» ، والعلاقة بينهما كعلاقة « المفهوم » « بالماصدق » منطقيا ، وهى تعنى أن الابداع الحق لابد أن يمس الأصول ، وهو ما يسمح لنا بالتمييز بين الابداع الحقيقى وذلك الظاهرى ، أو ــ على الأقل ــ الهامشى · ويبدو أن من مظاهر هذه

الجذرية مايمكن تســـميته «بالتأثير المباغت» للابداع ٠ فمصدر المباغتة هو أن الابداع الحقيقى يقلب الأمور كلها رأسا على عقب ليعيد تنظيمها من جديد ٠ ومن هنا تكون المفاجأة ويكون الاندهاش ٠ وكما سبق أن قلنا من قبل فان الابداع الحقيقى قلب للسلطة وتأسيس لكون جديد ٠

٢٢ ـ ولا ابداع حقيقيا الا فى ظل « النفس الطويل »، أى حين يتحول الابداع الى مشروع ذى حلقات ومراحل . يكون المبدع خلالها قادرا على مجابهة الصعاب وتعدى العوائق ، ممســـكا بالنواجذ طوال الوقت بحبل فكرته الجديدة المتين ، لا يسقطه ولا يسهو عنه ، وان بدا عنه فى عين الغريب لاهيا ٠ وبعبارة أخرى فان الابداع يشترط فى المبدع نوعا من الصبر العظيم والمثابرة ، فلا ابداع فى ظل « النفس القصير » ، ولا يدرك الابداع الا بالنظر اليه فى خلال « الأمد الطويل » ٠ وينطبق هذا الوصف الاجمالى على حالات الابداع الحضارى للأمم ، وعلى حالات الابداع الشخصى للافراد على السواء ٠ ان الابداع الحق لايعرف « بيضة الديك » ٠

٢٣ ـ وقد أشرنا من قبل الى اهمية ســـيادة روح الاشكال من جهة ، والروح النقدية من جهة اخرى عند المبدع ، وهذا وذاك يؤدى بالطبيعة الى سمتين متلازمتين من سمات الابداع ، ألا وهما أنه يقوم على التعددية من جهة ، وعلى الحرية من جهة اخرى ٠ فمحض الابداع ،

وهو نبذ قديم والاتيان بجديد ، وهو البدعة ، يعنى التعددية ويعنى الحرية · ان الابداع يعنى البديل دائما ·

٢٤ ـ كذلك كنا قد أشرنا الى أن الابداع هو تجديد جوهرى ، وليس أى تجديد ، فالابداع لابد له ، لكى يكون على الحقيقة ، أن يصيب كبد الأمر ، وهو مايعود بنا الى فكرة « الجذرية » من وجه ما ·

٢٥ ـ أخيرا ، فانه لايوجد ابداع فى الفراغ ، فهو دائما استجابة هادفة قصدية ، وهو ، كما أشـــرنا قبل سطور ، تقديم للبديل ، واعادة تنظيم للموقف ، واعادة تعبئة للطاقات ، بما فى ذلك أشكالها وتوجهاتها · ولنا أن نضيف من هذه الزاوية أن الابداع ضرورة لاســـتمرار الحياة المنظمة ، بل لاســـتمرار « الذات » الجمعية على الأخص · وتاريخ الحضـــــارات دال على أن الاستجابة الابداعية هى وحدها التى توفر السيادة للحضارة ، وتسمح لها بالاستمرار على مدى الحياة · ولا تضمحل الحضارة وتنهار الا حين تفتقر الى نمط الاستجابة الابداعية · ولك أن تقول الشىء نفسه ، على نحو ما ، عن مستوى المبدع المفرد ، فنانا أو فيلسوفا ، فهو اما أن يكون « شيئا » ، أى أن يقدم ابداعا ، واما أن يكون « لاشىء » ، أى أن يكون مثل هذا وذاك ولا فرق · وهناك كثير من شواهد « ضرورة » الابداع لحياة المبدع ولاستمرارها ، وحين ينضب ماء الابداع ، لا يصبح لحياة المبدع من معنى ·

ثانيا : وضعنا الفلسفى

ما الفلســــفة :

٢٦ ـ لابد أن نتعرف ، فى سرعة وايجاز ، على طبيعة الفلسفة ، تمهيدا لتعرف وضعنا الفلسفى ، وسوف نعالج هذا الموضوع على حســب العناوين التالية : الفلسـفة بوصفها نشاط ، موضوعها ، منهجها ، هدفها ونتائجها ، الفلسفة بما هى تخصص ، ثم نقدم تصورنا للفلسفة من حيث هى مبحث فى « الأصوليات » ٠

(أ) مقـــدمات :

٢٧ ـ لسنا هنا بطبيعة الحال فى مجال تقديم تعريفات الفلسفة على النحو الذى نجده فى الكتب التعليمية ، ولا يعنينا أن نقف عند مافهمه بشأنها اليونان أو الاسلاميون أو فلاسفة الحضارة الغربية ،فلا يهمنا التاريخ هنا كثيرا أو قليلا ، وانما ننظر نحن مباشرة الى ذلك الجانب من أنشطة الثقافة ، ونجد أنه يبحث فى الأصول والغايات على نحو عقلى شمولى (أو كلى) ، ويمكن أن نفصل طويلا فى هذا التعريف لنتعرف متضمناته من جهة ، ولنبين كيف أن ماليس بفلسفة يشـــار اليه سلبا فيه من جهة أخرى ٠ لكننا نكتفى الآن بأن نؤكد وحســب هذه العناصر الثلاثة الكبرى للنشاط الفلسفى : الاصولية ، العقلية ،الشمولية٠

ذلك ، لتكون هى « الذات العليا » فى مقابل « الأنا » الفاعل فى ثنايا الأحداث اليومية ·

(جـ) الفلسفة هدفا ونتائج :

٣١ ـ اذا كانت وظيفة الفلسفة تقديم تصور للعالم ، فان هدفها هو الوصول الى رؤية واضحة جذرية (أصولية) للكل ، ونتيجتها هى زيادة مساحة تلك الظاهرة الانسانية الكبرى ، الا وهى الوعى بتكامل الكل ، فبالفلسفة يبرز الكل وتعاد صياغة وظائف الأجزاء فى اطاره · وتأخذ الفلسفة أحد شكلين رئيسيين : فهى اما فلسفة تبرير ، واما فلسفة توجيه ، أى أنها اما أن تبرر أوضاعا قائمة باعطائها الصياغة النظرية التأصيلية ، واما أن تعرض البديل التأصيلى تمهيدا لتغيير الواقع والعمل · من ناحية أخرى فان الفلسفة فى حدها الأدنى تقدم نوعا من المعرفة، ولكنها فى قمتها تقدم ماهو أهم من المعرفة ، تقدم «الفهم» · ولعل هذا أن يكون معيارا للتمييز بين الفلسفة الدنيا والفلسفة العليا ، بل بين الفلسفة السلبية والفلسفة الايجابية · ومن هنا فان الهدف من الفلسفة هو حقا تغيير العالم ، أو قل ، بالدرجة الأولى ، تغيير نظرتنا اليه تمهيدا لتغييره ، بحيث يكون المقصود هو العالم الانسانى فى المحل الأول ، ومن بعده ، بعيدا ، العالم الطبيعى · لذلك فان الاطار الفعلى للفلسفة ، حتى حين تتحدث عن الوجود

والكون والمعرفة ، هو اطار الانسان ، كائنا بذاته ، وكائنا اجتماعيا ، وممثلا للكون ، وعلى صلة ضرورية به ٠

(د) موضـــــوعها :

٣٢ – ولعل القارىء قد لاحظ أننا لم نشـــر الى « الحقيقة » بشىء فى سياق حديثنا عن هدف الفلسفة ٠ وان المدقق فى مفهوم « الحقيقة » ، يجد أن له وجهـا « منطقيا » وآخر « وجوديا » ٠ أما الوجه المنطقى فانه يعنى تطابقا بين حكم ، أو قضية ، وشىء (أو أشياء وعلاقات) ٠

والفلسفة ليســت اشارة الى وجود خارجى ، الى « موضوع » يقف بازائها موقف المرجع من القول المشـير اليه ، لأن الفلسفة اعادة ترتيب لمجموع الأقوال والتصورات على نحو تأصيلى شمولى ، بطريق العقل البرهانى ٠ وبهذا لا تكون الفلسـفة تعبيرا عن « حقيقة » بالمعنى المنطقى ٠ ويمكننا أن نتصور فلســفات عدة تعبيرا عن تأصــيل للمجموعة نفسها من الأقوال والتصورات التى تكون ثقافة عصر ما ٠

وعلى غير حال الفلسفة ، فان « المعرفة » على المستوى الأدق لها ، أى مستوى « العلم » بالمعنى الاصطلاحى لهذه الكلمة ، هى التى تجعل من الحقيقة (المنطقية) هدفا لها ٠

فى حين يصبح هدف الفلسفة أقصى قدر من « العقلانية »، بمعنى وضع اليد على الجذور الأصلح لضم أكبر مساحة من حقل الثقافة تحت ضوئها ، أى تحت تفسيرها ٠

وهذا ما سبق أن أشرنا اليه بعبارة أخرى حين استعملنا اصطلاح « الوعى بتكامل الكل » ، وعلى الحد الأدنى فان هدف الفلسفة يصبح أكبر قدر من « الاتساق » بين « الأصول » التى تعرضها الفلسفة ، والظواهر الجزئية موضع التوحيد التفسيرى ٠

٣٣ ـ أما الوجه الوجودى للحقيقة فانه يشير الى « الواقع » أو الى « الموضوع » الأكبر ، الذى هو فى النهاية «الوجود » بأقوى وأشمل مايدل عليه هذا التصور ٠ ومن هذه الزاوية تكون « الحقيقة » ، أى الوجود ، موضوع الفلسفة ، ولكنها الموضوع الأخير ، أو الثانى ، لأن موضوعها المباشر هو، كما قلنا منذ قليل،أقوال الثقافة وتصوراتها فى عصر معين ٠ وقد سبق أن قلنا ان الانسان يمثل مركزا فى قلب هذا الوجود ، وهو فيه على السواء واضع السؤال ومفتاح الاجابة ٠ ويحتاج بيان العلاقة بين الموضوعين الى تفصيل وتدبير ليس هذا مكانه ٠

(هـ) منهجها ومناهجها :

٣٤ ـ ينتج عن بعض ماسبق أن منهج الفلسفة العام هو « التأصيل » « الشمولى » ٠ ولكن طريقة عرض

الفلاسفة لأبحاثهم تتباين تباينا كبيرا ، كما أن طريقة تناولهم لمادة الفلسفة ، أى للأقوال والتصورات التى تعمل عليها تختلف كذلك فيما بينهم · ومن ثم يمكن فى الوقت نفسه أن نتحدث عن « منهج» الفلسفة وعن « مناهج » الفلاسفة ·

ولاشك أن قدرا كبيرا من خصائص المنهج الفلسفى يقوم فى مجرد فكرة « البحث » ذاتها ، فالفلسفة كما أشرنا هى بحث فى المحل الأول والأهم ، ولكنها بحث من نوع خاص متميز عن مختلف ألوان البحوث الانسانية ، لأنه يتجه الى الأصول ، ويشترو النظرة الشمولية ، ولا يقوم الا على العقل · ونشير هنا الى مسألة جزئية ، ولكنها جديرة بالاشارة اليها ، دون تفصيل لا يحتمله المقام ، ألا وهى تغير معنى « البرهان » بين الفلسفة والعلم · فالبرهان العلمى ، فى ميدان الطبيعة والانسانيات ، يقوم على اقامة الحجة على وجود التقابل بين القضية والظواهر الموضوعية التى تشير اليها ، أما فى الفلسفة فان البرهان الفلسفى هو ، ايجابا ، اقامة الدليل على « الاتساق » بين المقدمات والنتائج ، وأحيانا ما ينزل درجات ليصبح مجرد التفضيل لمبدأ بازاء مبادىء أخرى ، لأن الأول أكثر قدرة على تفسير أكبر قدر من الظواهر ، أى لأن شحنته « العقلانية » ، أى قدرته التفسيرية التأصيلية ، أعظم من تلك المبادىء الأخرى · ان الفلسفة فى النهاية ان هى الا « اقتراح » برؤية ، ولذلك فليس لمنهجها « ضرورة » المناهج العلمية المعروفة ، ولا هى بحاجة الى ذلك ·

ويمكن القول أن البشر فى كل عصر من العصور يتوزعون على عدد من الفلسفات ، بحسب مايجدونه فى هذه أو تلك من وشائج القربى مع أفكارهم الخاصة ، ويكون فضل الفلسفة أنها تصرح وتفصل ، فى حين أن اتجاهاتهم هم تكون أقرب الى الضمنى والى الاجمال . وعلى هذا فلا مجال للحديث عن الفلسفة من حيث هى « علم » ، ولا مجال للحديث عن « الموضوعية » أو ماشابه . ولن نفصل هنا فى مسائل منهجية مهمة ، من مثل لجوء الفلسفة الى « التجريد » الشديد ، وهو ما يتصل بفكرتى الأصولية والشمولية معا ، فليس هذا الحديث التمهيدى عن مشكلة الفلسفة فى مصر موضعه .

(و) الفلسفة بما هى تخصص :

٣٥ ـ من القادر على فهم الفلسفة ؟ يجب أن يكون الجميع قادرين . من القادر على تقديم فلسفة ؟ لا نملك مع واقع الحال وضرورات الأمر الا أن نجيب جميعا : أفراد نادرون ، فلاشك فى أن الفلسفة تخصص ، بل هى صنعة واحتراف ، وصنعة نادرة . والسبب هو أنها تتطلب خصائص خاصة جداً ، تعود الى ما يناسب الثلاثى الفلسفى : الأصولية والشمولية والعقلية . ومع ذلك فان هناك دائما ، وفى كل المواقف الكبرى ، فلسفة ، صريحة كانت أو ضمنية . ومن هنا فانه يمكن أن نتحدث عن

« نداء الفلسفة » الضروري ، وهو نداء البحث عن « العقلانية » ، وعن « التنظيم » ، وهو ينبع من حاجة تبدو معطاة مع أول خطوات الفعل الانساني : الحاجةالىالفهم. وقد سبق لنا أن ميزنا بين الفلسفة والمعرفة ، ويمكن أن نقول على نحو ما ان صعوبة الفلسفة بما هى تخصص تأتى من أنها بالضرورة « معرفة المعرفة » . ويؤدى هذا الى أن أحد الفروض الأساسية التى تقوم عليها الفلسفة يتمثل فى تقدير المعرفة بذاتها تقديراً ايجابيا . ومن نافلة القول أن يقال ان ذلك الفيلسوف « المتخصص » لا يقوم بعمله ذاك ابتداء من ذاته الفردية ، ولا لمصلحتها ، على نحو ما يتخصص متخصص فى طب الأطفال أو التصميم الهندسى أو فن التدريس ، وانما منطلق الفلسفة بما هى تخصص هو الأنا الجمعى . ومرة أخرى يبدو لنا الفيلسوف قائدا بأدق مايفهم به هذا الاصطلاح .

(ز) من الفلسفة الى الأصوليات :

٣٦ ـ هل هناك فيلسوف مصرى قديم ؟ الجواب : لا ، اذا أخذنا الفلسفة على المفهوم والنموذج اليونانيين . هل هناك فلسفة مصرية قديمة ؟ الجواب : نعم ، بالضرورة، اذا أخذنا الفلسفة بمعناها الأعم ، بما هى تصور متسق للكون ، يبرز المبادىء والغايات ، وبوصفها جزءا لا فكاك منه فى كل ثقافة ، سواء أكانت ثقافة قبيلة صغيرة منعزلة

فى مجاهل استراليا ، أى ثقافة الصـــينيين ، أو ثقافة الحضارة الغربية الحديثة · ان اختزال تصورات ثقافة انسانية معينة الى مبادىء أساسية هو جهد يشبه أن يكون تلقائيا ، فور بروز هذه التصورات بروزا واضحا ، سواء على مستوى النظر أو ـ على الأقل ـ على مستوى الفعل والعمل · اذن فجوهر الفلسفة هو البحث ، بطريقة معينة، عن الأصول (ومنها المبادىء ومنها الغايات)·ولذلك فان الفلسفة هى على وجه الدقة مبحث الأصول العامة · وسوف نتحدث من بعد عن العوامل المباشـــرة التى تدفعنا الى تفضيل تعبير « الأصوليات » على كلمة « الفلسفة » ، دلالة على المضمون نفسه ، الذى أوضحناه فى الفقرات الأخيرة · ولكننا سوف نستمر فى استخدام كلمة « الفلسفة » ، ونبدأ فى اســتخدام « الأصـــوليات » كذلك منذ الآن على نحو تدريجى ·

الوضـــــع القـــــائم :

٣٧ ـ يمكن أن نوجز وصف الوضع الفلسفى المصرى القائم بكلمة واحدة ، هى : الضياع · وليس هذا بتعبير ادبى أو انفعالى ، وانما هو وصف موضوعى دقيق ، لأن له مضمونا محددا يتمثل فى شيئين : عدم تحديد الهوية المصرية ، وعدم معرفة الأهداف العامة للمجتمع ، وما ينتج عن ذلك من افتقاد خطة عملية للتحرك القومى · واذا كان هذان المضمونان عامين ولايخصان الوضع الفلسفى ذاته

وحده ، فان هذا لا يقلل من قوة انطباقهما على الوضع الفلسفي الذى هو جزء من كل ، وما ينطبق على الكل ينطبق على الجزء · واذا كان هذا المضمون هو الأساس العام للضياع الفلسفي ، فان لذلك الضياع مظاهر محددة ، هذه أهمها :

٣٨ ـ (أولا) ـ الضياع فى الغرب : يعوم الجهد الفلسفي المصرى ، بخاصة منذ انتظامه على نحو مؤسسى مع انشاء قسم للفلسفة فى الجامعة المصرية ، فى بحر لا شاطىء له ولا قرار ، فالغرق فيه مضمون منذ اللحظة الأولى · ذلك هو بحر الوهم العظيم المسمى « واحدية الحضارة » ، الذى بشر به « فيلسوف » حركة الأعيان ، « أصـــحاب المصالح الحقيقية » فى مصر ، أحمد لطفى السيد ، حين قال حرفيا : « ان الأوربيين هم « أساتذتنا »،

وعلينا أن نتتلمذ عليهم » · ويحتاج موضوع الضياع ف الغرب الى كتب عدة للتفصيل فى أشكاله وبداياته وتحولاته ونتائجه التى نغوص فى أوحالها اليوم · وسوف نعود اليه من بعد فى هذه الدراسة ، ولكنا نكتفي بأن نقول الآن ان واحدية الحضارية وهم عظيم ، بل هى الوهم الأعظم ، لأن الحضارة ليست واحدة ، وليس هناك عصر واحد ، لأن العصر لا يكون الا فى اطار الثقافة ، والثقافة لايمكن أن تنقل مهما ظن الســـذج الذين يعمون عن رؤية الحقائق الحضارية ، ويظنون أن التاريخ خط متصل ينتظمه سلك

واحد · وهم بهذا يبيعون بضاعة السيطرة الغربية على ادق المعانى ، وهم فى هذا لايدرون ، أو يكادون ، ماهم فاعلون ، ويعـــلنون أن من لا يرى رؤيتهم هو الأعمى ، ويتشنجون تشنج القطعيين الذين لا جلاء لبصيرتهم ·

٣٩ ـ (ثانيا) ـ الضياع فى التراث : وهو يقابل الشكل الأول من أشكال الضياع ، وربما جاء ردا عليه ، وهو على كل حال ضياع « أكرم » من ذاك السابق ، ولكنه ضياع على كل حال · والعـــلة هنا هى العلة نفســـها هناك ، فالحضـــارة الاســـلامية التاريخية قد اكتملت دورة نموها واقفلت دائرتها بتبدد السلطنة العثمانية عام ١٩٢٣ م · وربما تقوم حضارة اسلامية جديدة ، بمعنى تنظيم شامل اجتماعى وسياسى واقتصـــادى وثقافى يقوم على أساس دينى ، ولكنها لا « يمكن » ، نظرا لضـــــرورات مفهوم « الحضارة » ، أن « تعيد » أشكال الحضارة الاسلامية التاريخية نفسها · ومن هنا فان « التراث » ، أى مجموع الانتاج الثقافى الذى أنتجه البشر المسلمون (خلافا للقرآن والثابت الصحيح من السنة ، فهما باقيان مابقى الدين) ، ذلك الـــتراث لا يمكن بحكم التعـــريف ذاته الا أن يكون ذا طبيعـــة « تاريخيـــة » ، أى على صلة بالماضى وحسب ، ومن ثم فلا وظيفة له ، لا فى وضعنا الحاضر ولا حتى فى حالة قيام حضارة اسلامية جديدة ، فهذه ، فى حال قيامها،سوفتضع لنفسها ، بالاعتماد علىتفسيرجديد

بالضرورة للقرآن والثابت الصحيح من السنة ، « تراثها »، وسيكون حياة ســـاخنة فى البداية ، ثم اطارا مرجعيا للأجيال اللاحقة من بعد ذلك طوال الحقبة التى ستدوم عليها هذه « الحضارة الاسلامية الجديدة » المفترضة ٠

ونخـــرج من هذا كله بأن التراث التاريخى الذى ورثناه من الحضارة الاسلامية السابقة (وهى كائن زمنى على خلاف مصدرى الدين الاسلامى ، فهما على نحو ما خارج عامل الزمن) ، هذا التراث هو بالضرورة مجرد تاريخ وليس اطارا « مرجعيا » لنا اليوم ولا غدا على أى نحو سيكون عليه هذا الغد ٠ وطبق هذا المقال نفسه على التراث المصرى الذى نرثه ، بالضرورة ، من مصرنا القبطية ، وعلى التراث الذى نرثه من مصرنا القديمة ، فهذا وذاك هو بالضرورة محض تاريخ ٠ اذن ، فكل محاولة «لاحياء» التراث هى محاولة زائفة غير ممكنة بالضرورة ، وهى محض « كلام » يقول به من لا يفقه دروس الحضارة ، وخير له أن يولى وجهه ، ليس شطر التراث ، بل شطر المصادر الدائمة، وهى فى حالة الماضى الاسلامى القرآن والثابت الصحيح من السنة ٠ وعلى هذا ، فان دعاوى « تجديد التراث »، واكتشاف مذاهب « معاصرة » غربية (!) فى نصوص من التراث ، واعادة التفسير « العصرى » المزعوم للمتفلسفة الاسلاميين وغيرهم ، وكأن ابن رشد مثلا أو متكلمة المعتزلة يتكلمون بلغتنـــا ، كما يظن البعض من

أصحاب الأقلام ، كل ذلك زيف وجهد عقيم ، يقوده اما جهل مقيم أو مكر عظيم ·

٤٠ ـ (ثالثا) ـ الضياع على مستوى برامج الفلسفة في الجامعات : فلنقلها في وضوح وحسم : ان برامج دراسة الفلسفة في الجامعات المصرية بغير قيمة كبيرة ، لأنها لا تقول شيئا ينتظره الطالب أو يهتم به ، الا فيما ندر، ويكون ذلك على الرغم من روح تلك البرامج · ذلك أنها موضوعة على النمط الأوربي ، الفرنسي منه بخاصة والانجليزي ، ولذلك فانها تعبير مجسم عن « الضياع في الغرب » ، ومن مظاهر البلاء العظيم أن دراسة مايسمى «بالفلسفة » الاسلامية ذاتها يوضع من وجهة نظر غربية ، ويمثل مكانة ثانوية بالقياس الى المساحة التي تصول فيها وتجول أفكار وتصورات وأطر تنتمي الى الفلسفة الغربية · وبماذا يخرج الطالب من هذه الدراسة ، على الأقل في جانبها التاريخي ؟ نحن نقول : بلا شيء يهمه ، وبأشياء تزيد من ضياع وجهته ، فلا هو بقادر على « فهم » مايعرض عليه من نتاج الفلسفة الغربية ، وما أقل القادرين على ذلك من بين أعضاء هيئة التدريس أنفسهم في أيامنا هذه ، ولا هو ينجو ، من جهة أخرى ، مما يمكن أن نسميه «بؤس الوعي » ، وهو ناتج ضروري عن شعوره بعدم القدرة على متابعة ما يقدم اليه على أنه نموذج الأفكار·ومن هنا ينشأ شعور بالنقص ، ومن هنا يأتي الضياع لمن يناضل من الطلاب من أجل السيطرة على بعض مناحي « تاريخ

الفلسفة » الغربية ، الضياع فى مسارب لن يخرج منهــا بشيء،لأن تلك الافكار ليستأفكار ثقافته اليوم أو بالأمس القريب أو البعيد • ان ديكارت أو سارتر لم يفكرا لنا ولم يكونا ليستطيعانه •

٤١ ـ هذه هى أبرز مظاهر الضياع الفلسفى • وهناك مظاهر أخرى لن نستطيع الحديث عنها فى المقام ، منها مظهر التزييف ، أى الزعم بأن هناك « فلسفة » ما للنظام السياسى ، كما رأينا فى حقبة الستينيات ، ومن ثم الزعم بانها فلسفة مصر كلها ، كتبها بعض « الأيديولوجيين » ، ناقلين لها من بعض الكتب المدرسية من هذا المذهب أو ذاك، ومنها مظهر تعمية المشكلات الحقة ، وصــــرف الانتباه والجهد فى مشكلات زائفة ، من مثل «الأصالة والمعاصرة» حينا ، والدين والعلم حينا آخر ، مما تلوكه اقلام أنصاف « الكتاب » الذين سرعان ما يلبسون مسوح « المفكرين » ثم « الفلاسفة » مع مضى الزمن ، ومنها مظهر الازدواجية فى تقويم الفلسفة ، فحينا يستعمل الاسم لكل مايراد له أن يكون مهما أو عظيما ، وحينا تسخر السنة مســـئولة وتحرف الاسم ليصبح « فلفسة » ! وهذا ما يشكل ظاهرة خطيرة هى الازدواج الوجدانى ازاء الفلسفة ، مابين اقبال وادبار ، أو بين قبول ورفض • ولكن التفصيل فى هذه المظاهر ، حتى ولو كان على سبيل الاشارة السريعة كما فعلنا مع المظاهر الثلاثة السابقة ، ســــيخرج عن حدود

صفحات هذه الدراسة ، بل عن غرضها المباشر . وهو تصور الموقف ، والاشارة الى المخرج ٠

الأصـــول التـــاريخية :

٤٢ ـ لاشك أن لوضع الضياع هذا أصولا تاريخية تمتد بعيدا ، ويمكن أن نعيد صياغة أهم مظاهر الضياع الفلسفى المصرى ، لكى نعيد توزيعها على المراحل التاريخية التى نعدها مسئولة عن الوضـع الفلسفى القائم ، وأن نضمها فى ثلاثة :

(أ) الادبار عن الفلســـفة من حيث الأصـــل . وعلى درجة أدنى التشكيك فى قيمتها ، أو بيان أنها ـ على أحسن تقدير ـ مجرد ترف ، وقد تكون ترفا ضره أكبر من نفعه ٠

(ب) الارتماء فى أحضان الفلسفة الغربية ، على نحو ما أشرنا اليه ٠

(جـ) عدم القدرة على اتخاذ المبادرة ومجابهة المطلب الثقافى الحتمى ، القاضى بانشاء فلسفة مصرية حقا على مستوى احترافى متخصص ٠

٤٣ ـ أما المظهر الأول ، ونسميه مظهر الادبار عن الفلسفة ، فان منبعه الحقيقى هو رواسب الثقافة الاسلامية التقليدية ، وهى لاتزال فاعلة من خلال تعلقها بأذيال التدين

الاسلامى . ونحن ، كما ألمحنا ، نفرق بين الجانبين تفريقا حاسما . ولكن الواقع أن الاتجاه العام فى الثقافة الاسلامية التقليدية ، منذ القرن السادس الهجرى ، وبعد هجوم أبى حامد الغزالى على الفلسفة والفلاسفة ، أصبح يسير فى خط ادانة الفلسفة ، وشيئا فشيئا ابتعدت الأنفس الورعة عن الاهتمام بها ، ووصلنا فى النهاية الى قواعد من مثل : «من تمنطق فقد تزندق» ، حتى نجد رفاعة رافع الطهطاوى ، فى أول كتاب عربى واسلامى حديث ، هو « تخليص الابريز » ، يعيد الحديث عن الفلسفة بلهجة الاحترام ثم الترغيب ، ولكنه لا يقدم الحديث عن الفلسفة الا بعد أن يمهد ويحتاط . ولم تكن اشارتنا هذه الا من أجل الاستيفاء التاريخى ، لأن المعاهد الدينية الحديثة لا تفزع من الفلسفة فزع القدماء ، بل ان هناك تحولا ايجابيا فى مواقفها ، يتمثل أظهر ما يتمثل فى وجود قسم من أقسام كليات أصول الدين بالأزهر الشريف يحمل اسم « العقيدة والفلسفة » ، وان كان الهجوم على الفلسفة يظهر بين حين وحين ، وفقا لمدى اقتناع الأساتذة أنفسهم .

٤٤ ـ وأما المظهر الثانى ، وهو الضياع فى الغرب، فانه يبدأ واضحا حاسما منذ عهد دستور ١٩٢٣ ، بعد ما مهد له منظرون من أمثال قاسم أمين ثم أحمد لطفى السيد . وما مواقفهما الا النتيجة التى كان الاحتلال يرجو أن تختمر بذورها ، وأن تثمر ثمرتها فى عقول المصريين

ذواتهم ، لتكون درسا أساسيا من دروس الاخفاق التاريخى لحركة مصر فى القرن التاسع عشر الميلادى ، وأثرا غير مباشر من آثار الاحتلال البريطانى ، ومن قبله ومعه النفوذ الفرنسى ، فى أجواء الثقافة العليا ·

٤٥ ــ وأما المظهر الثالث ، وهو مظهر عدم المجابهة والنكوص عن المبادرة ، فانه اثر مباشر للسياسات العامة للحكم في مصر فيما تلا ١٩٥٢ ، حيث برزت ظواهر خطيرة، بدأت بما نسميه « استقالة » المفكرين ، أى نكوصهم عن أداء واجبهم التأصيلى فى استقلال ومثابرة ، وذلك فى الأغلب الأعم ، وعلى درجات متفاوتة ، ومهما تكن الأسباب الموضوعية لذلك ، وفى مقدمتها الترهيب والغواية ، وانتهت بهذه الظاهرة المرضية التى نسميها بظاهرة « الحاكم المفكر » وما يتبعها من ظواهر فرعية ، من مثل « الموظف الأيديولوجى » ، و « المفكر المرتزق » ، وصعود كتاب صحفيين الى مرتبة « المفكرين » ، والخلط بين الأديب والمفكر ، الى غير ذلك ·

ثالثا : محاولات الابداع وفروضها المسبقة

٤٦ ــ الابداع قرين الحياة ، وهو فى بساطته الساذجة الأولى استجابة مناسبة لموقف جديد · والحياة لا تكف عن التغير ، ومن ثم لا يتوقف سبيل استثارة رد الفعل

الابداعى • ومهما يكن من شأن المعوقات التى تقف فى وجه تيار الابداع ، فان فكرة الرغبة فى الابداع ، أو قصد الابداع ، لم يغب بالكلية عن أفق نظر الثقافة المصرية الحديثة ، مهما يكن الأمر من سذاجة بعض التوجهات أو الضباب الذى أحاط بتوجهات أخرى، أو الاخفاق الضرورى الذى منى به بعضها الآخر •

٤٧ ـ ولن يمكننا الحديث عن فلسفة جديدة ، أو عن قصد فلسفة جديدة ، الا فى اطار الدولة المدنية ، وفى اطار تعدد فكرى • ولذلك فلا مجال للبحث فيما خلف نظام دستور ١٩٢٣ م • ومع ذلك ، فقد ظهرت فى الحقبة السابقة ، منذ عصر محمد على ، بعض البدايات ، لعل أولها ، وأهمها ، اعادة التقويم الايجابى الى مفهوم الفلسفة على يد رفاعة الطهطاوى ، ومنذ كتابه الأول نفسه، « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » (صدر عام ١٨٣٤ م •) • كذلك ظهرت عروض لأفكار فلسفية غربية على يد كتاب جيدى الفهم ، أبرزهم السورى أديب اسحق ، فى المدة بين ١٨٧٨ و ١٨٨٢ م • ومع أديب اسحق يظهر بشكل واضح تيار الأخذ عن الغرب على أساس أنه ضرورة ثقافية ، أى مايمكن أن يسمى بتيار « التقليد مظنونا أنه الابداع » •

ومن الظواهر اللافتة للنظر كذلك فى الحقبة نفسها وما تلاها ، أن أتباع جمال الدين الأفغانى أخذوا فى تلقيبه

« فيلسوف الشــــرق » . وسوف تبرز هذه التسمية على الخصوص فى المواجهة (على ما صورت عليه ، برغم انها لم تكن فى الحق كذلك) بين الأفغانى وارنست رينان ، الكاتب المتفلسف الفرنسى ، حول حظ الشرق من الفلسفة. وربما أسبغت على الشيخ محمد عبده بعض هالة فلسفية ، وان لم يكن ذلك فى صراحة ما نسب الى الأفغانى ، على الأقل فى أثناء حياته ، لأنه ستظهر محاولة صريحة فى هذا الاتجاه بعد وفاته(١) . أخيراً فما من شك فى أنه ستظهر أفكار فلسفية عند بعض الكتاب الشاميين ، من أمثال شبلى شميل وفرح أنطون ، وعند قاسم أمين وأحمد لطفى السيد ، وكذلك عند عباس محمود العقــاد وســلامة موسى فى كتاباتهما المبكرة ، وعند غــيرهم ، وذلك كله فى الحقبة السابقة على الحرب العالمية الأولى .

نظرة الى المحاولات الابداعية الفلسفية

٤٨ ـ انه لذو مغزى كبير أن التاريخ الحديث للفلسفة فى مصر لم يكتب بعد ، ولم تتعرض له دراســـة متأنية شاملة متصلة ، وكل ما هنالك أبحاث جزئية ، تخص بعض الأشخاص فى أغلب الأمر ، وتتصل بالســنين الأربعين الأخيرة فى معظمها ، على حين ينبغى تأصــيل البحث بالرجوع الى نقطة البدء المتعارف عليها تاريخياً لمصــر الحديثة ، وهى زمن الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ ـ

١٨٠١ م ٠) ٠ وهناك عناصر أساسية يعرف على الأقل اتصالها بهذا الموضوع ، منها مكان الفلسفة فى مراحل التعليم بأنواعه ، ومنها دراسة الترجمات ثم المؤلفات . ومنها مواقف بعض كبار الكتاب ، منذ رفاعة الطهطاوى الى كتاب النهضة المصرية (١٨٧٨ ـ ١٨٨٢ م ٠) ، الى الأفغاني ومحمد عبده ، الى قاسم أمين وأحمد لطفى السيد ومن تلاه فى مرحلة دستور ١٩٢٣ وما بعدها ، ما بين جامعيين احترافيين وكتاب تستهويهم مســـائل ومواقف فلسفية بين حين وآخر ٠

٤٩ ـ ولسنا هنا بصدد الاشارة الشاملة الى حركة الفلسفة فى مصر الحديثة ، ولا حتى على سبيل الايجاز ، ولكننا ننظر الى الأمر من زاوية الابداع ، ومن زاوية ارادة الابداع على التخصيص ٠ وهنا لا نستطيع الا أن نقرر قضيتين أساسيتين تحكمان مسرح الموضوع بأسره :

(أ) حركة الفلسفة فى مصـــــر ، فهما لموضوعها ، وتعليما لها ، وتأليفا فيها ، يحكمه منطق النقل عن الغرب، تحت لواء فكرة الفلسفة الواحدة (ومن تحتها فكرتا العقل الواحد والانسانية الواحدة ، كما سنرى فى القسم الأخير من هذه الدراسة) ٠

(ب) وحتى حين يكون هناك هدف التجديد (وهو شكل مخفف مما أسميناه بارادة الابداع) ، الذى يأخذ شكل

ابراز مذهب متميز ينتسب الى صاحبه دون غيره ، فان ذلك التجديد المزعوم يتم كذلك فى اطار السباحة فى مياه الفلسفة الغربية فى مرحلة أو أخرى من مراحلها ٠

ولن نتعرض هنا لتفصيل القضية الأولى ، وانما تهمنا ، فى اطار الدراسة الحالية ، القضية الثانية ، التى نبرز مضـــمونها باشارات موجزة الى اثنين من المؤلفـــين الاحترافيين ، الذين حاولوا قصدا تقديم مذاهب « جديدة » على ماكانوا يؤملون ، وهما يوســـف كرم (توفى عام ١٩٥٩ م ٠) ، وعثمان أمين (توفى عام ١٩٧٨ م ٠) ٠

٥٠ ـ ويمكن أن نقول بغير تحفـظ ان كتابى يوسف كرم « العقل والوجود » ، و « الطبيعة وما بعد الطبيعة » ، يحتلان المرتبة الأولى بين التآليف الفلسفية الحديثة من حيث الالتزام بالمصطلح الفلسفى ، وتوافر الشرائط الفنية فى العرض الفلسفى ٠ ان هدف يوسف كرم هو عرض الحقيقة أو الحق بشأن كل المسائل (« العقل والوجود »، ص ٧ ، « الطبيعة ومابعد الطبيعة » ، ص ٥ ، والاشارات الى طبعتى الكتاب الأوليين فى دار المعارف بمصر ، فى عامى ١٩٥٦ و ١٩٥٩ م ٠ على التوالى) ٠ ويعــــرض المؤلف فى الواقع لمختلف مسائل نظريتى المعرفة والوجود بالتركيز والايجاز والوضوح والعمق المعروفة عنه جميعا ، سواء فى كتابيه هذين أو فى كتبه الثلاثة الأخرى عن « تاريخ الفلسفة اليونانية » و « تاريخ الفلسفة الأوربية

في العصر الوسيط » ، و « تاريخ الفلسفة الحديثة » . ولكن الحق معروف مسبقا في نظر يوسف كرم : انه فلسفة ارسطو . يقول عن المذهب الذي يعرضه : « اذا سئلنا عن هذا المذهب ، وعن مصدره ، قلنا انه المذهب العقلي ، يؤمن بالعقل Intellectualisme ، ولكنه المذهب العقلي المعتدل ، يؤمن أيضا بالوجود ويقدر تعقله عليه ، ثم قلنا ان أفلاطون قد سبق الى بعض لمحات منه ، ولكن أرسطو هو زعيمه الأول ، الذي استخلص معانيه الأساسية ، ومبادئه المنطقية والميتافيزيقية ، وصاغ تعريفاتها ، واستخرج نتائجها ، وان الفلاسفة الاسلاميين ، وبخاصة ابن سينا وابن رشد ، قد أسهموا فيه باللسان العربي المبين ، فنحن نعود الى هؤلاء جميعا ، ونؤيد شروحهم وأدلتهم ، ونبين تهافت الذين حادوا عنها من الفلاسفة المحدثين .. فعسى أن يقتنع قارىء هذا الكتاب أن الحق مكنون في هذا القديم الذي نبعثه » («العقل والوجود » . ص ٧) . وهو يعود في خاتمة الكتاب (ص ١٨٧ ـ ١٨٨) الى الاشارة الى سقراط وأفلاطون وأرسطو الذين افتتحوا هذا « الطريق الملكي » للفلسفة ، ولكن الفلاسفة الآخرين المنكرين حادوا عنه . ومهمة يوسف كرم هي اعادة الأمور الى نصابها ، والرد على الشكوك ، وتبديد الشبهات ، ولهذا فانه يرد في كتابيه على كل المخالفين ، في الفلسفة الغربية الحديثة بخاصة ، لمذهب الحق الثابت ، مذهب أرسطو ، الذي يتابع يوسف كرم كل تقسيماته

الكبرى فى مناقشة المسائل ، سواء فى نظرية المعرفة أو فى نظرية الوجود • وهكذا فان يوسف كرم لم يكن الا صورة حديثة من « الفلاسفة الاسلاميين » التقليديين ، الذين افتقروا الى الحس التاريخى ، وأخذوا بمبدأ الحقيقة الواحدة والعقل الواحد ، والذين ساروا فى خط التبعية الفلسفية • فهل من جديد حقا عند يوسف كرم ؟ ان أخذنا الكلمة بالمعنى المطلق قلنا : نعم ، هناك جديد عنده ، يتمثل فى رده على المذاهب المعارضة لأرسطو بوجه خاص . ولكننا اذا أخذناها على المعنى الدقيق لم يكن هناك لديه جديد ، بل هو تقليد وتبعية •

٥١ ـ وربما يكون الجديد أوضح لأول وهلة عند عثمان أمين ، حيث يقدم فكرة محورية ، هى أقرب ما تكون الى المفتاح والى خط النظر منها الى المبدأ الفلسفى ، ألا وهى فكرة « الجوانية » ، التى يقول عن طريقها : «والطريق هو تقديم « الذات » على « الموضوع » ، والفكر على الوجود ، والانسان على الأشياء ، « والرؤية » على « المعاينة » ، والتمييز بين الداخل والخارج ، وبين الكيف والكم ، وبين بصر العقل وبصر العين » (« الجوانية • أصول عقيدة وفلسفة ثورة » ، الطبعة الأولى ، ص١٢١)• ويضيف : « ان الجوانية فلسفة تستند على تزكية الوعى الانسانى ، وممارسة الحرية النفسية ، وتسعى الى تعميق فهمنا للمقاصد والمعانى والقيم • وهى بهذا الأساس تمارس

الوظيفة الفلســـفية على الأصالة : التماس اللب والمبدأ والكيف والحق » (نفسه ، ص ١٢٣) · وهو يرى أن « دعوتها الفكر الى الالتفات الى ذاته ليجد فيها سبب الأشياء وقوامها ، وفي توجيه النظر الى الاحتفال بالمعنى والفكرة والمثال ، منهج لايزال كبير الأهمية لفهم العالم وفهم الانسان » (نفسه ، ص ١٣٤ ـ ٤) · ويقول في موضع آخر : « ان الجوانية من حيث هي في صميمها فلسفة وعي ، قد اتخذت لنفسها الشعار الاسلامي العملي ، شعار « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » ، ورأت هذا المبدأ « فرض عين » لا فرض « كفاية » ، وجعلته مبدأ من مبادىء الوعي الانساني ·· » (نفسه ، ص ٢٦١ ـ ٢٦٢) ·

٥٢ ـ ولن نتعرض هنا لمعارضـــة الفلسفة الجوانية (راجع انتقادات نافذة في دراسة الدكتور حسن حنفي «من الوعي الفردي الى الوعي الاجتماعي » ، في « دراسات فلسفية مهداة الى روح عثمان أمين » ، (١٩٧٩ ، ص ٤١١ ـ ٤٦٦) ، ولكن نشير الى ملاحظتين تخصان منظور الابداع :

(أ) ان الدكتور عثمان أمين لم يأخذ فكرته الأساسية ليتوجه بها مباشرة الى اعادة تفسير الوجود والمعـرفة والظواهر الانسانية ، بل ظل معها حبيس أفكار الآخرين ، من يونان الى اسلاميين الى غربيين الى اسلاميين محدثين

أخيراً ، يحاول أن يستدل على مظاهرها عندهم ، وكأن قوة الفكرة فى قول الآخرين بها • وفى هذا كله نجد ظاهرة التبعية نفسها ، ولكن هذه التبعية مزدوجة : فهى تبعية بازاء الفلسفة الغربية ، يونانية وحديثة ، وبازاء التراث الدينى الاسلامى (جامعا لأشتات من الكلام والتصوف ، والعقل والنقل ، وابن رشد والغزالى) • ولاتكاد تخلو صفحة من صفحات كتاب « الجوانية » من اسم بل أسماء من عالم الفلســـفة الغربية وأعلام الاسلاميين • وهكذا ينتصر فى عثمان أمين مؤرخ الفلسفة على الفيلسوف •

(ب) ان أسلوب عرض هذا المنظور الفلسفى لا يتواءم مع الدراسة الفلسفية ، فما كتاب « الجوانية » الا نظرات متفرقات ، فيها عنصر اليوميات ، وعنصر مفكرة القراءة ، وعنصر الأبحاث التاريخية واللغوية والدينية • والبحث الوحيد الذى يتفرغ لتقديم عناصر المنظور الفلسفى الجديد، أو المراد له أن يكون جديدا ، هو المعنون « ملامح الفلسفة الجوانية » (ص ١٢١ ــ ١٤٥) ، (وراجع أيضـــا ص ٢٦١ ــ ٢٦٣) • وهكذا يتغلب النفس القصير على النفس الطويل عند عثمان أمين • وبالمقارنة يظهر الفضل الكبير لكتابى يوسف كرم ، اللذين يلبيان مطلب البحث المفصل المتصل• ان الابداع الفلسفى لايتم بالقاء فكرة فى صفحات، كما أن الشاعر العظيم ليس ذلك الذى يطلق بيتا رائعا أو

قصيدتين من الدرر ، انما يشترط له العرض التفصيلى الممتد .

٥٣ ــ ويثير هذا الأمر الأخير مسألة ذات خطر : ما الشروط الواجب توافرها لكى تكون مجموعة ما من الأقوال « فلسفة » ؟ ويثير هذا نفسه مشكلة لا تقل خطرا : من الفيلسوف على الحقيقة ؟ ولن نعرض لهذه المشكلة الثانية هنا ، ونكتفى باشارات أساسية فيما يخص المسألة الأولى، فنرى أن شروط القول الفلسفى هى كما يلى :

(أ) أن يكون الموضوع المتناول فلسفيا ، أو «أصوليا»، بمعنى أن يكون خاصا بمسائل أصولية وكلية .

(ب) أن تكون طريقة تناوله عقلية برهانية .

(ج) أن يكون أسلوب عرضه على هيئة الكتاب المطول وليس المقالة القصيرة التى لا تتواءم مع طبيعة البحث الأصولى الشمولية .

رابعا : شروط الابداع الفلسفى المصرى

٥٤ ــ نعرض لهذه الشروط فى سبع نقاط ، هى على التوالى : الوعى بالذات ، هدم الأوهام ، ارادة الرؤية الواضحة ، شروط موضوعية أساسية ، شروط خاصة بالمبدع بما هو فرد ، شروط منهجية ، البدء من فلسفة فى الحضارة .

١ ـ الوعي بالذات :

٥٥ ـ أشرنا من قبل الى أنه لا عبقرى ، وهو قمة المبدعين ، الا وهو يعى ذاته ، وليس عبقريا من لا يعى ذاته على هذه الصفة • ولا نشك لحظة فى أن مكتشف النار قد أدرك أنه أتى بدعا ، وأنه نادر المثال • ولكن الابداع الفلسفي لايمكن أن يكون ابداعا فرديا ذاتيا ، على نحو ابداع الشاعر ، في معظم الحالات ، مثلا ، لأن الجهد الفلسفى جهد اجتماعى بالضرورة • واذا كان الجمهور ضرورة فى الفن ، فانه فى الشعر قد يقتصر على شخص واحد ، واقع أو متخيل ، أما فى الفلسفة فان الجمهور هو بالضرورة الأمة جمعاء ، التى ينتمى اليها الفيلسوف • ولذلك كله فان الوعى بالذات المشار اليه فى العنوان هو على مستويين : وعى الأمة بذاتها ، ووعى الفيلسوف فردا برسالته وقدراته • ونتحدث عن هذا المستوى الثانى فيما بعد ، وما نقصده هنا هو المستوى الأول • فما الفلسفة ؟ هى رؤية متميزة للكون ، ولايمكن أن تكون الا فى اطار ثقافة أمة ، ليست متميزة عن غيرها وحسب ، بل وتعى هذا التميز (ونقصد به محض الغيرية ، بلا اضافات من استعلاء أو غيره) •

ان مصر هى أقدم أمة تعيش على الأرض ، ذابت فى طوفان التاريخ شعوب كانت معاصرة لبنائها لأول خطوات الانسان فى الحضارة التاريخية كما يذوب الطين فى الماء

ولما جف الماء بقيت منها الآثار وحسب ، أما مصر فحظها غير هذا الحظ ، فقد استمرت قائمة مكانا وموضعا وبشرا وثقافة أساسية ، وطرأت عليها تيارات من ثقافات وأديان، ولكن بقدر ما تشربت منها استمر من ذاتها القديمة شيء أساسى لاتكاد الا العين المدربة الخبيرة أن تدركه • وما حديثنا هذا نفسه الا شاهد على ذلك ضمن شواهد • وقد كان من الطبيعى فى اطار الثقافتين الدينيتين اللتين استقرتا فى مصر ، القبطية ثم الاسلامية ، أن يتوارىالوعىبالذات المصرية لينغمس فى الذات الدينية الجديدة ، بخاصة أن الدين لايكاد يقيم للذات وزنا الا ليجعلها تتوجه الى الذات الكبرى الكونية ، الذات الالهية ، اما لتفنى فيها ، أو — على الأقل — لتسبح فى نورها • ومع ذلك فان ذات مصر بدت منفردة ومتفردة من خلال هذه الأغطية الجديدة ، فانفردت بمذهبها « القبطى » ، وبكنيستها المصرية ، وانفردت بتصور للاسلام يتوازن فيه العمل والعلم ، ويتلألأ اتزانا وتوسطا ، وانتزعت شعلة الاسلام ، بل وشعلة اللغة العربية ، وهى ليست من حيث الأصل الا لغة غريبة عنها ، فحفظتهما حربا وسلما ، وعلما وأداء • فما أقدر مصر اذن ، أمة هى « الأمة » اذا كان بين البشر أمم ، وما أندرها ! ، على أن تكون ذاتا ، وعلى أن تعى ذاتها •

ويمكن أن نقول ان قصد مصر الجوهرى فى السنين المئتين الأخيرة هو أن تعى نفسها ، ولكن العوائق التى

قامت دون هذا عوائق هائلة ، من خـــارجها ومن بعض داخلها ، وربما يعود عدم ظهور فلسفة مصرية حقة فى أصله البعيد الى هذا السبب ، فلن تقوم فى مصر فلسفة الا بشرط وعى مصر بذاتها • ولا شك أن العوائق الخارجية أعظم تأثيرا من العوائق الداخلية ، وما هذه فى معظمها الا انعكاس لتلك العوائق الخارجية ، التى مصدرها اما قوى مسيطرة ترغب فى السيادة ، واما قوى متنافسه (ان لم نسمها بما هو أقل من ذلك) تريد أن يظل الغطاء كاتما لجوهر مصر ، وأن تزاد فوقه أغطية وأغطية •

٥٦ ــ ولاشك انه يتحتم علينا أن نجيب اجابة واضحة عن هذا السؤال الخطير : لم مصر ؟ وقد سبق أن أثبتنا أن الابداع الفلسفى لا يتم الا فى اطار ثقافة أمة تعى ذاتها • والآن فان الأمة التى فى متناول يدى ، والمؤكد انتمائى اليها وانتماؤها الى ، ان أمكن أن نقول هذا ، والتى تتجسد على نحو واضح وحاسم ومتميز ، فهى كيان معنوى ومادى بحق ، ان هذه الأمة هى مصر • ان مصر هى التكوين الثقافى والبشرى والجغرافى المباشر لى ، وهو المخصوص لى كذلك • ومن هذا الساذج الذى يبيع القريب بالبعيد والأبعد ؟ وما سبيل الوصول الى البعيد والأبعد الا بأن تمسك بكلتا يديك على القريب أولا ؟ أولا يقال : « عصفور فى اليد » ؟ فعلى من يريد استقالة مصر وفناءها من أجل تكوينات جديدة بعضها فى علم الظنون ان لم يكن فى علم

الغيب ، أن يعرف أنه يخطىء الحساب • فلنمسك بمصر ولنبدأ بها ، ثم لنذهب الى الآخرين من بعد ذلك وليس قبله• ان مصر هى مركز الدائرة ، ولن أذهب الى أطراف الدائرة الا مسيطرا على مركزها • مرة أخرى : نتحدث عن مصر . وعن الابداع الفلسفى المصرى ، لأن مصـــر هى الذات المؤكدة القريبة الخاصة بى ، التى أستطيع مؤكدا ، بل واجبا ، أن أتحدث عنها وباسمها ومن أجلها • وهل ينفى الانتماء الى مصر انتماءات أخرى ؟ كلا بالحسم ، تماما كما أن محافظة المرء على ذاته لا تنفى انتماءه الى أسرة صغيرة والى عائلة أكبر والى قرية أو مدينة أو منطقة جغرافية أو وطن بأكمله أو أمة ثم الى صـــنف البشــر أجمعين • ولكن البؤرة الأساسية المؤكدة المضمونة هى على المستوى الشخصى الفرد ذاته ، وهى على المستوى الثقافى مصرنا • وابتداء من مصر ، فلنمض الى الآخرين، الى كل الآخرين ، وان مصر دوما لانفتاح على البشر •

٥٧ ــ ما هذه الدوائر الأخرى ؟ انها فى المحل الأول، والأكبر ، ما يسمى بالدائرة « العربية » ، نسبة الى اللغة العربية ، والى نوع من الثقافة هو اسلامى فى مصدره وحقيقته ، ولكنه عبر عن نفسه باللغة العربية ، والى نوع آخر من الثقافة ، أهم وأهم بحساب المصير ، هو ذلك الذى نريد أن نبنيه معا ، ولكنه سيكون بالضرورة فى وعاء اللغة العربية ، التى يتعين اذن أن نعيد بناء معانيها ، مادام

يستحيل أن نعيد بناء مبناها . هذه الدائرة « العربية » ، التى نبعد عنها شبهة الوقوع فى شعوبية التحزب لعنصر بشرى دون غيره ، هى التى تضم كل من يتحدث بالعربية ويريد أن يضم مصيره الى مصيرنا بوصفنا مجموعة . وفى مقدمة هؤلاء ينبغى أن يكون « العرب » حقـــا ، أى جنسا ولغة ، وهم أهل شبه الجزيرة العربية من أقصاها الى أدناها ، ثم كل الشعوب العتيقة التى بقيت من وراء حركة التاريخ وهو لايزال فى مهده ، من عراقيين الى أهل الشام من شماله الى جنوبه ، الى أهل مصر ووادى النيل ، الى أهل شمال أفريقيا من شرقه الى غربه ، والى امتداداته الجنوبية فى جوف الصـــحراء شرقا وغربا . هذه هى المجموعة التى تشكل الدائرة الأولى ، التى تمثل الاطار الضرورى لكل تحرك مصرى ، فى مختلف صوره . ويعنينا منه هنا الانتاج الثقافى على وجه خاص .

وان على الابداع الفلسفى المصرى أن يفكر لمصر ، وأن يفكر فى الآن نفســـه لما يقترح أن تكون عليه ثقافة هذه المجموعة فى المستقبل . لأن هذا هو ما يغفل عنه الأكثرون : أن ثقافتنا « العربية » الجديدة هى الشىء الذى نريد أن نصنعه معا، والذى لا ندرك أطرافه ولا حتى بداياته الى اليوم . وحين نفكر فى المستقبل ستنكمش الفروق الى أقصاها ، وستزيد رقعة التوافقات الى أقصاها .

والدائرة الثانية هى الدائرة الأفريقية ، وهى ظهـــر مصر الاستراتيجى ، والحديث عنها يحتاج الى تخصيص ليس هذا مكانه • ويرتبط بهذه الدائرة ـ على نحو ما ـ مايسمى حاليا بدائرة « العالم الثالث » •

والدائرة الثالثة هى الدائرة الاسلامية • اننا بوصفنا افرادا ، ننتمى الى أمة مثالية ، أى أمة على مســـتوى الانتماء المعنوى ، هى الأمة الاسلامية • كان هذا صحيحا بالأمس ، وهو صحيح اليوم ، وينبغى أن يكون صحيحا فى الغد • فكيف لى أن أنزع عن نفسى مصـــدرا للقوة الممكنة فى يوم قريب أو بعيد ، حين تتنادى التوافقـــات ويصر صرير الاختلافات ؟ ولكن الدائرة الاسلامية كانت ، بالأمس ، شيئا أكثر من دائرة الانتماء المثالى • لقد كانت دائرة الانتماء الفعلى ، وهى من هذه الزاوية جزء جوهرى من تراثى ، له الأهمية نفسها التى لأجزائه الأخرى ، وقد تزيد عند البعض • وهو فوق هذا كله حاضر بشكل حتمى من خلال حضور اللغة العربية • ومن هنا كان هناك كثير من التداخل بين الدائرة « العربية » والدائرة « الاسلامية »• ولكن الســـؤال المهم هو : كيف يمكن أن تكون الدائرة الاسلامية أفقا ممكنا للابداع الفلسفى ؟ ان الاسلام ليس بحاجة الى فلسفة ، لأن سلطة الفلسفة هى العقل ، وسلطة الدين سلطة الهية • ولكننا لن نهيم فى التصورات الخيالية•

ان الانسان الذى يصنع فلسفة بعقله ، لا يصنعها بمعزل عن تجاربه الأخرى ، ومنها ماضيه ، وطبيعة تكوينه البيئى، والديانة السائدة فى ثقافته · وسيبقى الاسلام ماشاء الله له أن يبقى ·

الدائرة الرابعة هى الدائرة العالمية · ولكن العالمية المقصودة هى تلك التى لم تصنع بعد ، وكل الأفكار المنتشرة حاليا عن « العالمية » هى أفكار عن عالمية زائفة ، لأنها تخدم سيطرة الحضارة الغربية فى الواقع · وينبغى أن نفرد فى هذا المنظور العالمى اهتماما خاصا بالجناح الآسيوى الشرقى ، القريب منا نوعا ، كالهند وماحولها ، والبعيد نسبيا ، كالصين وما حولها · وكل الدلائل تقول ان الصين حليف استراتيجى ممكن لمصر على الدوام · ويحتاج الحديث عن العالمية المنشودة الى مقال خاص ·

٥٩ نخلص من كل ما سبق الى أن الابداع الفلسفى المصرى ينبغى أن يبدأ من الوعى بالذات المباشرة ، وهى مصر ، وأن يتسع للوعى بامتدادات هذه الذات ، عربيا وافريقيا واسلاميا ، بل وعالميا ، وهو المآل الأخير ، فعلى الفيلسوف المصرى أن يفكر فى الآن نفسه للبشرية الجديدة كلها ·

٢ ـ هدم الأوهـــام : وهم الذوبان فى الغـــرب ، وهم الحضارة الواحدة ، وهم العقل الواحد :

٥٩ ـ يعتمد وهم الذوبان فى الغرب على وهم أوسع وأخطر هو وهم أن الحضارة واحدة ، وأن هناك شيئا اسمه « البشرية » ، وأن البشر فيها سواء ، ومن وراء هذا وذاك وهم أساسى : أن العقل واحد ٠

٦٠ ـ والواقع أن السبب المباشر للذوبان فى الغرب هو تصور أنه لا قوة لنا الا على طريقة المسيطر فى هذه الأيام ، وهو الحضارة الغربية ٠ ويترتب على هذا أن نأخذ لا مجرد أدواتها من مصانع وسلاح ووسائل ، بل كذلك ، وبالضرورة ، أفكارها وقيمها ٠ وهذا هو المحال ، لأنه لايمكن لثقافة أن تحاكى ثقافة أخرى الا بأن تموت ٠ وحتى مع هذا الشرط فهى لن تستطيع أن تقلد الثقافة الأخرى الا على طريقة تقليد القردة ، أى فى رسومها الخاصة ، ولن تستطيع على أى الأحوال أن تصل الى ما وصلت اليـه ٠ كيف ذلك والجانب الكاثوليكى نفسه من الحضارةالغربية لا يصل الى مستوى ما وصل اليه الجانب البروتستانتى؟ ان الثقافة هى ما هى وحسب ، ولايمكن أن ينقل منها شىء حقيقى ، والحقيقى فى الثقافة هو الأفكار والقيم ٠ اذن لا امكان لكم فى أن تكونوا « مثل » الغرب فى شىء ٠ أما الحديث عن « العصر الواحد » فانه حديث ساذج لمن لايدرى أن العصر هو مفهوم حضارى ، فلا عصر الا فى اطار

الحضارة ، وما يكون بين حضارتين ليس الا تآنيا وليس « تعاصرا » ، تماما كما كان الشأن بين هارون الرشيد وشارلمان · ان واحدية العصر تعنى الانتماء بالضرورة الى الحضارة نفسها ، والا فلا تعاصر ولا معاصرة ·

٦١ ـ والأصل فى هذا كله هو وهم الحضارة الواحدة، وهى أساسا دعوى الغرب ، لأنها تحقق مصلحته · ان تاريخ البشر على الأرض (ولا نقول تاريخ البشرية ، لأنه حيث لا حضارة واحدة على الأرض فلا « بشرية » هناك الا بالمعنى التجريدى المأخوذ اصطلاحا ليعنى خصائص مشتركة للبشر فى مقابل كائنات أخرى) ـ هذا التاريخ لم يعرف مطلقا الحضارة الواحدة التى تسود أطراف الأرض ، وكذلك الحال اليوم وبالأمس القريب ، مع هذا الفارق الكبير : أن هذه الأيام شهدت ظاهرة فريدة تحدث لأول مرة ، هى سيطرة حضارة واحدة على بقية الحضارات والمناطق فى مختلف أرجاء الأرض ، سيطرة عسكرية واقتصادية وثقافية ، ومن ثم انتشرت منتجاتها ، من أشياء وأفكار وطرائق ، واصطنعتها لنفسها فئات فى بقية الحضارات ، خضعت لتلك الحضارة ، أو اضطرت الى الأخذ بها دفاعا عن بقاء الذات· وهذا هو معنى ما أشرنا اليه من « العالمية » الزائفة ، التى تظهر فى هذه الأيام ، وما هى الا وجه مقنع للسيطرة الغربية ·

٦٢ - ونأتى الآن الى المظهر الفكرى والفلسفى على وجه الخصوص لهذين الوهمين ، وهو يتمثل فى وهم ثالث اخطر ، لأنه أكثر مبدئية وبساطة ، ألا وهو القول بأن العقل الانسانى واحد ، وأنه يتطور ، مظاهره مختلفة ، ولكنه هو هو ، ومن ثم فان منتجاته عند قوم تصلح لقوم آخرين حتما • ويفضى هذا كله الى أن هناك شيئا اسمه « الفلسفة » ، وأنها من نتاج ذلك « العقل » البشرى الموهوم • وصحيح أنها ، عندهم ، نشأت عند اليونان ، وأنعم بهم وأكرم ! فهم أكرم أهل « البشرية » المزعومة لهذا ، ولكن ذلك انما كان لحظ هؤلاء اليونان ، ولعبقرية خاصة أوتوها ، وورثها عنهم خلفهم ، وهم اليوم أهل الحضارة الغربية • ونحن نقول انه ليس هناك « عقل » واحد ، لأن « العقل » كلمة ، مجرد كلمة لا أكثر ، وهى قد تدل على « قدرة » على الادراك والسلوك ، وهذه قائمة حقا لدى جميع البشر ، ومن هذه الزاوية فان هناك حقا « عقلا واحدا » لدى جميع البشر • ولكن الكلمة تعنى شيئا آخر ، هو الذى يقصد اليه أصحاب الموقف الذى نحن بسبيل مناقشته ، وهم يخادعون ، أو يخدعون ، حين يخلطون بين المعنى السابق والمعنى الجديد ، الذى هو « مجموعة أفكار وتصورات موضوعية ومنهجية على السواء » • ونحن ننكر أن يكون هناك عقل واحد بهذا المعنى ، لأن معناه هو قيام حضارة واحدة وثقافة واحدة لكل البشر ، وهو ما رفضناه فى الفقرة السابقة • أما من

يدعون ذلك ، فعليهم الاثبات ، ولن يستطيعوا • فهل كان « العقل » المصرى مثل السومرى ؟ بل هل فهم « العقل » الاسلامى « العقل » اليونانى ؟ بل نخصص ونقول : هل « العقل » اليونانى هو « العقل » الأوربى ؟ وهل المفكرون الاسلاميون المحدثون ينطلقون من « عقل » هو بالضبط « كعقل » مؤسسى المذاهب الفقهية السنية الأربعة المشهورة، على سبيل المثال ؟ والأمثلة لاتحصى • ان العقل هو تعبير عن الثقافة ، فلا عقل الا فى اطار الحضارة وليس هناك عقل واحد ، ولا بشرية واحدة ، ولا حضارة واحدة ، ولا يمكن لأحد أن ينقل نتائج حضارة أخرى الا اذا أراد أن يصبح جزءا منها فى مقابل اعدام الذات ، وهو حتى فى هذا لن يستطيع ، وسيكون مكانه المؤخرة المستهلكة لمنتجات الحضارة • ولن يستطيع أن يقود بله أن يشارك فى الانتاج الثقافى مجرد مشاركة • هل تنظرون الى هنود أمريكا الشمالية ؟ والى مواطنى جزر المحيط الهادى الخاضعين للسيطرة الأمريكية ؟ والى مسلمى الاتحاد السوفيتى ؟

٦٣ ــ ان حضارة الغرب حضارة مختلفة ، وعدوانية ، ونحن حضارة وليدة بسبيل التكون • ولأول مرة فى تاريخ البشر تبدأ حضارة بالنظر الى ذاتها والى توجهعالمىحق • ومعنا ، وعلى أساس جديد حقا ، سوف تبدأ العالمية الحقة •

٣ ـ ارادة الرؤية الواضحة :

٦٤ ـ لا ابداع بغير ارادة ٠ والمستوى الأهم من مستويات الارادة فى هذا الاطار هو مستوى ارادة الرؤية الجديدة الجذرية شموليا ، وهو ما نسميه اختصارا بالرؤية الواضحة ، وليس من اليسير تنفيذ برنامج هذه الرؤية النفاذة ، لأنها قلب للمعتاد ، ومخالفة لأهل العصر ٠ وهى رؤية صعبة لأنها جديدة ، ولأنها تتطلب التعود عليها ٠ وكيف ذلك وسبيله انتزاع الفكر من استخدام الطرائق المعتادة ؟ ومع ذلك فان فضل المبدع يظهر فى هذا الميدان أول ما يظهر ٠ وكثيرا ما يصيبه الضر ،على أنحاء شتى ، نتيجة لهذه الارادة ، ارادة المختلف ٠ ولكن انتصاره ، وديمومة الثقافة التى ينتمى اليها،هما ثمن هذا الاصرار ، الذى تمثله أفضل تمثيل العبارة المنسوبة الى عالم الفلك الغربى جاليليو (١٥٦٤) ١٦٤٢ م) ، الذى خرج من جلسة محاكمته بسبب هرطقة جاء بها بزعم أن الأرض تدور حول الشمس وحول نفسها ، فى حين كانت الكنيسة الكاثوليكية ، اعتمادا على التوراة اليهودية ، ترى أنها ثابتة ، وأنها مركز الكون ـ خرج من محاكمته ليقول : « مع ذلك فانها تدور ! » ٠

والوجه الآخر، أو الوجه السلبى، من ارادة الرؤية الواضحة النافذة ، هو ارادة رفض الوضوح الكاذب ، فعلى الابداع

الفلسفى المصرى أن يصر على رفض ماهو فى أعين الأكثرين ، بل فى أعين الجميع ، وضوح كالشمس ، من نحو واحدية الحضارة ، ووحدة العصر ، ووحدة العقل ، وضرورة الخضوع للغرب (وأى أخذ بأفكار الحضارة الغربية وقيمها ، والتعلق بهذا أى تعلق ، هو خضوع للغرب ، مهما حاول المسفسطون) ٠

ونشير الى أنه من أهم موضوعات جلاء ارادة الرؤية الواضحة الاهتمام بتعدى الواقع الغث الذى نعيش فيه ، وبمشكلات الدفاع عن الذات التى تلجئنا الحضارة الغربية اليها لالهائنا عن الابداع ، وذلك من أجل ادراك مشكلات المستقبل الكبرى ، حتى نستطيع ملاقاته على نحو ايجابى٠ ومن أهمها نتائج الثورات العلمية والتكنولوجية الهائلة ، ونضعها بصفة عامة فى اطار : « الانسان والآلة » ، والآثار السلبية الخطيرة الناتجة عن سيطرة الحضارة الغربية العدوانية (على الطبيعة وعلى الآخرين بل على ذاتها) ، بما يمكن أن يؤدى الى جنون « الانسانية » المستقبلة اذا استمرت سيادة الحضارة الغربية ٠

٤ ـ شروط موضوعية أساسية :

٦٥ ـ لن نستطيع أن نفصل ، فى هذا المقام ،فى تعداد ما نرى أنه شروط موضوعية وعامة وأساسية ، ونقتصر على الاشارة الى بعض من أهم هذه الشروط :

(ا) توافر المناخ الاجتماعي ـ السياسي ، القائم على الحرية وعلى احترام الفكر ، وعلى احترام حقوق الاختلاف في الرأى ، وعدم ممارسة الارهاب من أى مصدر كان •

(ب) أن يقوم المجتمع في كليته بالتحرك المنتظم الى وجهة متسقة تحت راية الاتفـــاق على الحد الأدنى من المبادىء والأغراض (أهمها ما يتعلق بالعلاقة بين المجتمع والفرد ، لمن السيطرة في المجتمع ، الاســتغلال والعدالة الاجتماعية ••) • وقد سبق أن أشرنا الى أن الابداع الخاص جزء من حركة الابداع العام •

(جـ) السيطرة على طوفان المعارف ، ويستدعى هذا ليس فقط الســـيطرة على كل المعـــارف التى تظهر فى المجتمعات الأخـــرى ، بل كذلك تنظيم ايصـــال المعارف وتهيئة سبل الحصول عليها بأيسر طريق • ان نظرة الى حال مكتبات القاهرة العامة تدل على أننا فى هذا المجال تحت مستوى الصفر •

٥ ـ شـــروط خاصة بالمبدع بوصفه فرداً :

٦٦ ـ يمكن أن نقول ان الافتقار الى الاستقلال هو ظاهرة عامة بين منتجى الكتابات الفلســـفية فى مصـــر الحديثة الى اليوم ، فهناك تبعية حتى فى ميدان البحث التاريخى الفلسفى ، الا فى رسائل جامعية وكتب نادرة

تعد عدا • وهناك كذلك ، كما أشرنا على سبيل المثال ، تبعية فى ميدان الرأى الفلسفى • والمتبوع فى العادة هو الحضارة الغربية• اننا نريد استقلالا تاما للمبدع الأصولى بازاء أساتذته وبازاء التراث ، وعلى الأخص بازاء الفكر الأجنبى • على أن وسيلة هذا الاستقلال الكبرى ، وان لم تكن الوحيدة ، هى ارادة الاستقلال ، وهى تتطلب استعدادا شخصيا ، ومناخا عاما يؤكد الاستقلال ، والا فلا استقلال ولا تهيئة له بارادته فى مناخ يعلن فيه أحمد لطفى السيد مثلا أن الحضارة واحدة ، وأن الأوربيين أساتذتنا ، ولا فى مناخ يراد فيه فرض فكرة أن العصر واحد ، وأن الغرب هو موجه العصر ، والعلم علمه ، والفكر فكره ، وله القوة والبأس ، ولا فى مناخ سياسى واقتصادى نخضع فيه للتعليمات تأتى من باريس أو لندن أو موسكو أو واشنطن • وهكذا فان ارادة الاستقلال عند مشروع المبدع الأصولى ينبغى أن تساندها ارادة الاستقلال ، وتحقيقه عند الأنا الجمعى ، والا صعب الصراع على الأول • هذا وقد سبق أن أشرنا فى القسم الأول التمهيدى الى سمات للمبدع واتجاهات للابداع يمكن تطبيقها هنا ، ولعلنا نعود الى ذلك بتفصيل أوفى فى دراسة شاملة •

٦ ـ شروط منهجية :

٦٧ ـ على الرغم من أن هذا الموضوع مهم وحيوى ، وأنه ينبغى أن تكون له الصدارة بين الاهتمامات الفلسفية،

فانه مهمل فى كتابات الكتاب المصريين · وهناك شـروط منهجية على مستوى المجتمع كله ، من أهمها نقل المعارف التى لايمكن للابداع الفلسـفى الحديث أن يقوم الا بعد السيطرة عليها ، وأهمها نقل كم المعارف الغربية ، فضلا عن معرفة تراثنا ، فى قسمه الاسلامى وسابقيه القبطى والمصرى القديم ، وتوفير سبل البحث والدراسة والانتاج أمام القـادرين عليها ، وتوفير اطـار الهدوء والتركيز اللازمين لكل ابداع· ومن الظاهر أن هناك مايشبهالمؤامرة لمنع تحقيق هذا كله على المستويات كلها · وهناك شروط منهجية موضوعية ، من أهمها حسم الأمر بخصوص الموقف من تاريخ الفلسفة » ، ورفض الموقف الخاضع الذى يريد أن يرى الفلسفة فى تاريخ الفلسفة ، وهو موقف يشـكل ضدا وعائقا لكل امكان للابداع والاستقلال · ومنها كذلك رفض كلمة « الفلسفة » ذاتها ، مادامت سوف تؤدى بنا الى وهم واحدية العقـل والثقافة ، واسـتخدام تعبير « الأصوليات » بدلا منها · وهناك شروط منهجية على مستوى المبدع الأصولى نفسه ، من أهمها أن يكون قادرا ، بعد الاحاطة بكل المعارف بقدر الطاقة والامـكان ، على وضعها جميعا بين « قوسين » ، ليبدأ ، لا من رأى هـذا أو ذاك ، بل مما نسميه « نقطة الصفر المنهجى » ، أى كأنه ينظر الى الوجود لأول مرة ، وكأنه أول ناظر،وفىخلال هذا كله ينبغى أن تتعلق عيناه بالمستقبل ، لا أن تنغلقا على الماضى ·

٧ ـ البدء من فلسفة فى الحضارة :

٦٨ ـ لازلنا نقول : « الحضارة الغربية اليوم ، وغدا ، فى مرحلة أزمة ، وهذه الأزمة ستؤدى بها حتما الى مصيرها الضرورى ، وهذا المصير الضرورى هو الانهيار »(٢) • ونضيف أنه لابد كذلك من تحديد موقفنا من ماضينا ، الى جانب تحديد موقفنا من الحضارة الغربية ، مع بيان نظرتنا الى المستقبل • هذه التحديدات هى ما يشكل أهم موضوعات فلسفة الحضارة أو أصولياتها ، التى نرى أنها البداية الضرورية الايجابية لكل فلسفة مستقبلة فى مصر • فلن تقوم فلسفة أو أصوليات على الحق الا بعد تحديد اجابات مفصلة مدعمة عن هذه الأسئلة : من نحن ؟ من كنا ؟ من معنا ؟ من هم ؟ ماعلاقتنا بكل هؤلاء؟ وماذا نريد أن نفعل لأنفسنا وللغيروللانسانية؟ وما شروط قيام العالمية الحقة ؟ الى غير ذلك من أسئلة أساسية •

خامسا : استشراف المستقبل : ماذا نريد ؟

٦٩ ـ اذا صرفنا النظر عن بديل ينادى بهقوم تبلدت حاستهم التاريخية ، وكادوا أن يكونوا قد فقدوا صلتهم بعالم الوقائع ، وهو بديل الذوبان فى الاتجاهات الماضوية، فلا يكون هناك أمامنا الا بديلان : اما الابداع ، فى كل ميدان ، واما التبعية للغرب ، تبعية مطلقة ودائمة •

وما يؤسف له أن بديل التبعية هو الذى تحتل مظاهره مقدمة المسرح فى حياتنا فى مختلف جوانبها ، وعلى انحاء شتى ، ان ايجابا أو حتى سلبا • ونقصد بالسلب هنا أنه حتى عندما تقوم محاولات تراثية فانهـــا تبدأ من منطق الدفاع : « لسنا أقل من الغرب ! » • وهكذا فان الحضارة الغربية هى نقطة البدء فى هذا التيار الغامر ، ان ايجابا وان سلبا (والواجب أن يكون الوجود من جهة ، وذاتنا القومية من جهة أخرى ، هو نقطة البدء) • وليس هنا مجال التفصيل فى قصة هذا الوضع المحزن الذى نغرق فيه، ونكتفى بالاشارة السريعة الى القضية الأساسية : نعم لابد من أخذ أشياء عنالغرب ، ولكن من أجل الدفاع عن أنفسنا ضد هجومه وبأسلحته • وقد حدث هذا مرات فى حضارتنا وفى لقاء الحضارات الأخرى • وهذا ما نسميه باســـم « الأخذ عن الغرب تكتيكيا » (أو وسائليا) ، وهو قصـد النهضة المصرية حتى الســـبعين عاما الأولى من القرن التاسع عشر الميلادى • أما أن يتحول الأخذ عن الغرب الى « استراتيجية » (أى هدفا لذاته) ، وهو ما نادت به بجلاء اتجاهات الليبرالية المصـــرية بقيادة أحمد لطفى السيد ، فانه اما استنتاج خاطىء ، واما سوء رؤية ، واما تزوير للارادة المصرية الجوهرية ، أو كل هذا مجتمعا •

٧٠ ـ ذلك أن الأخذ عن الغرب اســـتراتيجيا ، أى بوصفه هدفا فى حد ذاته ، يقوم على أخطاء شنيعة لاتكاد

تدركها الأغلبية · واذا أدركتها قلة نادرة فما أسرع ما يصرفون وجوههم عنها ، لأن استخراج نتائج ذلك الادارك يعنى تغيير وجهة حياتهم بأسرها ، ووجهة حياتهم هى العيش على فتات تافه مما تلقىبه الحضارة الغربية ، ومما يقتنصونه بجهد جهيد ويظنونه الصيد الثمين · ومن أعظم هذه الأخطاء :

١ ـ وهم أن الانسانية كيان قائم ، فى حين أنها مجرد تصور فى الذهن ، وأن القائم حقا انما هو أمم أو شعوب على الأقل ، وما بينها من اختلافات نتيجة «للثقافة» هو أقوى كثيرا ، وبما لا يقاس ، مما قد يبدو بينها من اتفاقات نتيجة لواحدية التكوين الطبيعى البيولوجى · ونوجز فنقول ان هذا الوهم تلعب على وتره الحضارة الغربية ، لأنها هى المستفيد الوحيد منه · فاذا كانت هناك انسانية واحدة مزعومة ، فانها هى « قمتها » وأعلى ممثليها ، ومن ثم فانها هى موضع التقليد ولها مكان القيادة · ومن الطريف أن الحضارة الغربية تلعب كلا اللحنين المتناقضين حسبما يعن لها ، وحيثما تكون فائدتها : لحن الانسانية الواحدة ، ولحن التفرد والتفوق الغربى الساحق (وعلىالنموذج نفسه يلعب أصحاب صهيون على وتر الضعف الشديد الى حد الانسحاق ، وعلى وتر التفوق العرقى المذموم من قبلهم قبل غيرهم) · والذين لم يدرسوا منا التاريخ فى تطور ثقافات بنى

الانســـان لايدركون أنه هيهـــات لهم أن يقتربوا من الحضارة الغربية ، بله أن يصـــبحوا « مثلها » ، أو أن يصبحوا هم والحضـــارة الغربية ذاتا واحدة ، لا لأن الثقافة الغربية شيء فوق الطاقة ، بل لأنها « آخر » تام ، وكفى ٠

٢ ـ وهم أن « العقل » واحد ، بعد كون « الانسان » واحـدا ، وأن هناك تطورا يتقدم عليه ذلك « العقـــل » الانساني المزعوم ، بخطى متئدة لكنها ثابتة ، من خلال مختلف الثقافات ، الواحدة بعد الأخرى ، حتى وصل الى أعلى تعيناته في الفكر الغربي ، بعلمه وفلسفته وقيمه ٠ ونحن نرفض وهم هؤلاء السذج في وجود « فكر » واحد و « فلسفة » واحدة (وبدايتها بالطبع عند اليونان آباء الغرب !) ، بل حتى « علم » واحد ٠ ان ذلك « العقل » الانساني المزعوم انما هو وهم كبير ، هو مجرد تصور في الهواء ، والقائم حقا هو فكر الثقافات ، وهو بالضرورة متنوع ومختلف بحكم اختلاف الثقافات بالضرورة ٠ وعلى ذلك فلا يمكن ، في الواقع والشرع معا ، وعند من يدرك أو يريد أن يدرك ، أن تأخذ ثقافة فكر ثقافة أخرى ، فهذا زرع لعضو غريب في جسم غريب ، وان حدث ، ظاهريا ، فسرعان ما يلفظ ، كما حدث لزرع الفلسفة اليونانية في جسم الثقافة الاسلامية ، فقد استمرت حينا ، ثم لفظت ، وكان لابد أن تلفظ ٠ أما حين يقدر له أن يبقى الى أجل

طويل ، فلا يكون له من أثر الا افناء الثقافة التى يدخل عليها الفكر الغازى ، كما حدث لثقافات سكان الأمريكتين الأصليين ، وسكان أفريقيا جنوبى الصحراء ، وهو مايعنى فى الواقع افناء التجمعات الحضارية ، سواء أكانت قبيلة أم شعبا أم أمة • وهذا هو المصير الذى ينتظرنا ، طال الزمان أم قصر ، اذا نحن اتبعنا دعوى الجهل وقصر النظر التى نحن بصددها •

٣ ــ وهم « العصر » الواحد بيننا وبين الحضارة الغربية • والواقع أنه لا عصر واحدا الا بين أبناء ثقافة واحـــدة • وهكذا فان الطهطاوى وخـير الدين التونسى متعاصـــران ، نعم ، والبياتى وصـــلاح عبد الصـــبور متعاصران ، نعم ، وكاتب هذه الكلمات وقراؤها فى فاس وفى صنعاء وفى بغداد متعاصرون ، نعم ، ولكن ليس بيننا معاصرة مع أعضاء الحضارة الغربية اليوم • وهل كان الطهطاوى وكارل ماركس « متعاصرين » ؟ وحتى حين يأتى سارتر الى القاهرة ، ويتحلقون حوله فى وهم المعاصرة الزائفة ، فلا هو سمع منهم ، ولا هم فى الحق كانوا قادرين على « التفاهم » معه ، وانما معاصروه هم مالرو وادورنو وآير ومورافيا ومن شاكلهم • ان ذلك الذى يقع فى براثن وهـــم « المعاصرة » المزعومة هو ذلك الذى لم يدرس من التاريخ الا أحداثه ، وفاته منظور « الثقافات » ، وأن الوقت لا يعد بحركة عقارب الساعة ، بل فى اطار مرجع أهم هو

الثقافة • ورب « ملاح فضاء » أمريكى أو روسى يضرب على أزرار فى مركبة تبعد عن الأرض فى السماء آلاف الأميال ، ويعيش معه فى « اللحظة » نفسها فى بعض قرانا بائع ملح يهش الذباب ويبيع فى يومه بقروش ولايدرى قيمة لوقت أو فعل ، انهما لايعيشان فى « العصر » نفسه ، بل فى « الآن » نفسه أو اللحظة وحسب ، تماما كما كان هارون الرشيد وشارلمان : عاشا فى « الوقت » نفسه وليس فى « العصر » نفسه •

٧١ ـ ونصدر عن اعتقاد راسخ حين نقول ان نشر هذه الأوهام الخطيرة ، التى تنتشر بين من هم فى أقصى اليمين الفكرى ومن هم فى أقصى اليسار ، لا يفيد الا سيطرة الحضارة الغربية ، بل هى نفسها مصدر هذه الأوهام وهى ناشرتها • ومن هنا ندرك مدى « التبعية » الموضوعية لأجهزة الاعلام ، وكثرة غامرة من الكتاب من كل لون ، والباحثين الأكاديميين فى معظم الفروع • ان خطة الحضارة الغربية ، والبعض قد يسميها « المؤامرة » ، هى الهاؤنا الدائم عن ذاتنا ، أى عن الابداع • وأوثق وسائل هذا الالهاء هو وضع وجودنا المادى ذاته موضع الخطر• يفعلون هذا فى ميدان السياسة بعدوانهم المتكرر منذ ١٧٩٨ م ، ويحركون الخيوط من وراء الستار ليكون هذا حال كل فرد فى حياته اليومية اليوم ، فيضلون المفكر عن سبيل الابداع الذى يشترط خلوص البال وتوافر المادة

الفكرية وامكان التركيز والتفرغ • وهكذا تتشابك الحلقات من الأمة الى الفرد ، من الحرب الى الفكر ، من الأمس الى اليوم الى الغد •

٧٢ ـ ان خطر بديل التبعية للغرب متعـــدد المناحى متشعبها • والتبعية ليست خطرا علينا وحسب ، لأنها نفى للذات ، بل هى خطر كذلك على الغرب ذاته ، وعلى مستقبل بنى الانسان • ذلك أن الغرب قد دخل منذ عشرات السنين، منذ حربه الكبرى الأولى التى سماها « عالمية » (١٩١٤ ـ ١٩١٨ م) فى مرحلة التحلل ، بعد أن بدأ فى الانهيار منذ لحظة وصوله نفسها الى قمته العظمى ، مع الثورة الصناعية فى انجلترا ، والثورة السياسية الفرنسية فى ١٧٨٩ م ، ومع جوته وبيتهوفن وهيجل فى ألمانيا • ويجب ألا تخدعنا قوته المادية ، اقتصادا وعسكرا وعدوانا ، فحال الامبراطورية الرومانية والدولة العثمانية فى أخـــريات أيامهما يدلان من لايعرف على أن القوة المادية لاتعنى فى ذاتها الشيء الكثير • والآن ، اذا تمت للغرب الســـيطرة الثقافية على سكان الأرض جميعا ، فان أولى نتائج هذا هى فقدان أمل الغرب ذاته فى الانتهـــاء من حضـــارته العدوانية القتالة ، التى تعتدى على الانسان وعلى الطبيعة، بل على ذاتها • وثانية النتائج هى دخول بنى الانسان فى بنيان حضارى لن يؤدى بالجنس البشرى الا الى الجنون أو الانتحار ، ويمنع فوق هذا كله من امكان قيام «الانسانية»

الحقة ، لأول مرة ، يبنيها بنو الانسان جميعا ، متعاونين متساوين ، ليس لاثنين منهم أو ثلاثة وحدهم حق النقض (الفيتو) المزعوم ! ان انفلاتنا عن تبعية الغرب هو خير لنا ، وخير للغرب ذاته ، وخير لبنى الانسان ، والأساس الوحيد لاقامة الانسانية الحقة •

٧٣ ـ من المسئول عن خط التبعية للغرب الذى نحن فيه منذ النصف الثانى من عصر الخديو اسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩ م) ؟ أشرنا الى مسئولية الغرب ، ولكنها مسئولية النافخ فى النار ، العامل على الهاب شعلتها ، أما المسئولية الأولى والكبرى ، فهى مسئولية القادة منا • والقيادة ألوان وأنواع • وساذج من يتوهم أن القيادة السياسية هى أهم أنواع القيادات • صحيح أنها أبرز وأظهر ، لأنها تشعر بنفسها فى حياة كل يوم وعلى مستوى التحرك المادى للفرد بأشكال مختلفة ، ولكن الصحيح أيضا أنها فى الوقت نفسه نتاج وموازاة لقيادات أخرى ، اجتماعية واقتصادية ودينية وفكرية • ونحن نقول فى وضوح ان خطأ تعاظم قدر دور القيادة السياسية فى المجتمع المصرى الحديث ، منذ محمد على ، يعود الى من تركوها تتعاظم ، حتى تظهر تلك الظاهرة المرضية التى نسميها بظاهرة « الحاكم المفكر » • ونقول فى صراحة ان أصحاب الرأى بوجه عام ، والقادرين على أن يكونوا أصحاب فكر بوجه خاص ، هم فى المقدمة الأولى لمن يتحمل المسئولية عن هذا الوضع المرضى ، الذى ينتهى

دائما بأصحابه وبمجتمعهم الى التهلكة ، كما رأينا مرة ومرتين وثلاثا وأربعا منذ عصـــر محمد على الى الأمس القريب · على المفكر ألا يستقيل من أداء واجباته ، وعليه التسلح بارادة الاستقلال عن كل سلطات المجتمع ، لأنه هو فى المحل الأول المعبر عن عقل المجتمع وعن ضميره معا · وسوف نعود من بعـد للاشارة الى دور الارادة ، ارادة الاستقلال ، وارادة الابداع ، وهما وجهان لشىء واحد ، والشىء نفسه ·

٧٤ ـ ان نتائج خط التبعية واضحة لا لبس فيها ، وهى تتجسد بيننا وتتشخص فى معظمنا : فى ملابســـنا وفى برامجنا التعليمية على السواء ، فى ضياعنا القومى وفى ضعفنا أمام الأعداء ، فهى تدنى مستويات كل الأشياء، فى غياب رؤية لغدنا القريب فضـــلا عن البعيد ، وفى كلمة واحدة : فى غياب الذاتية ·

٧٥ ـ والبديل الآخر ، الابداع ، هو الضـــد الكامل للتبعية ، فيه نكون نحن نحن ، ونذال احترام الذات أول ما ننال ، ونجدنا نشارك مشاركة ايجابية وفعلية فى توجيه مصائر بنى الانسان ، ونكون فى النهاية قادرين على قيادة المطلب الضرورى القادم : انقاذ الانسانية ، وبنى الحضارة الغربية ذاتهم ، من عدوان الحضارة الغربية ، ومن اتجاهها نحو افساد حياة كل البشر ·

٧٦ ـ ان أول أساس يقوم عليه اتجاه الابداع الجديد هو الارادة وليس العقل• ان العقل حساب، ولو تركنا العقل يحسب ويقارن ويفاضل الى مالا نهاية لحلت الكارثة ونحن نحسب ، وانما دور العقل عندنا هو دور الممهد ، ببيان المدخل الحضارى لكل فلسفة مصرية مستقبلة ، بل للثقافة المصرية القادمة كلها ، ومركزه ادراك انهيار الحضارة الغربية ، وتبيان البؤرة المصـــرية الدائمة فى ذاتها وفى علاقاتها الجوهرية معا • وبعد ذلك يترك للارادة تحديد الهدف • والهدف هو التجديد الشامل ، وتقديم قيم جديدة لمصر ورفاقها على الطريق ، وللانسانية الجديدة من بعد• أما دور العقل فيصـــبح المنفذ لتلك الارادة • ان بعض المعبرين عن « العقل » الواحد المزعوم يقولون : « ماذا لديكم من علم ومن فن ومن صناعة ومن زراعة ومن تنظيم ؟ لا شىء ، والغرب لديه كل شىء ، فخذوا منه كل شىء ، فهو النموذج ، وهو العصر » • والعقل عنـــدنا يكتشف مغالطات ذلك الموقف ، والارادة تتخذ القرار : لن نتبع ثقافة الغرب : وسوف ننشىء ثقافتنا ، وفى المدخل الضرورى اليها فلسفتنا ، والعقل ينفذ مقتضيات تلك الارادة السامية، فينشىء الفلسفة الجديدة ، والتنظيم الاجتماعى الجديد ، والعلاقات الاقتصادية الجديدة ، والقيم الجديدة فى كل ميدان ، والروح الدينية الجديدة ، والفن الجديد ، والعلم الجديد ، ابتداء من مبادىء جديدة ، ويحاول فى هذا كله أن يعيد خلق معانى لغة الضاد خلقا جديدا ما أمكنه ذلك ،

لتبتعد عن أصلها الصحراوى ، ولتستطيع مجابهة عالم التنظيمات المعقدة ، وخطر الآلة ، وسرعة التغيرات فى مختلف الميادين ٠

٧٧ ـ ان علينا فى المشروع الابداعى الأصولى (أى الفلسفى) أن ننزع عن كاهلنا مشكلات تقليدية فارغة من الأهمية الحقة ، تنوء بها الدراسات الفلسفية ، وهى كلها تنبع عن خطأ وهم « الفلســفة الواحـدة » ، وتظهر فى الاستغراق فى تاريخيات تسيطر عليها أســماء أفلاطون وأرسطو والفارابى وابن رشد وديكارت وهيجل وهيدجر ٠

وشأن المستغرق فى هذه المسائل شأن « الغارق فى شبر من الماء » حرفا بحرف ٠ انما يتحتم علينا أن ننتبه الى ابداعــات الذات المصــرية فى قديمها ، حين خلقت الحضارة خلقا والسياسة والدين والأخلاق والفن ، وفى حديثها ، والى المسائل الجوهرية فى التراث الاسلامى ، بعيدا عن أحابيل لعبة الفلاسفة أو المتفلسفة المزعومين ، وكذلك ، وعلى وجه أخص وأخص ، الى أهم مشــكلات المستقبل : الانسانيات (ومن خلالها معرفة الانسان وفعله وعلاقته بالوجود) ، والصلة مع الطبيعة ، والموقف من الآلة (وهى الخطر الأعظم لو كنتم تعلمون) ، ومشكلة صراع الأجيال ، وصراع المرأة مع الرجل ٠ وليكن موقفنا واضحا : نحن لا نقول : اهملوا الماضى ! فما أبعد هذا عنا ، بل نحن نقول : لنعرف كل الماضى ، على أدق وجه ،

ولكن لنقدم ماضينا على ماضى غيرنا ، ولنبدل من نظرتنا الى منزى ماضى الاخرين تبديلا ، ولنهتم بالمستقبل أضعاف ما نهتم بالماضى ٠

٧٨ ـ واذا نظرنا الى ما يجب على اتجاه الابداع الأصولى الجديد أن يتفرغ لبحثه ، بعد وضع مقدمات المدخل الحضارى الى أصولياتنا (فلسفتنا) الجديدة ، فانه التعرض لمسألتين لا نغالى فى بيان أهميتهما الجارفة : تحديد المصطلح الفلسفى الجديد ، نافضين عن كواهلنا ضغط النموذج الغربى ، ومراجعين للمصطلح الفلسفى فى لغة الضاد ، ناظرين اليه نظرتنا الى مستودع موضوعى (بصرف النظر عن أهميته التاريخية) ، وناحتين من الألفباء مصطلحا أصوليا جديدا تماما ، وتحديد مواقف واضحة متزنة من المشكلة التى نسميها مشكلة « التراث المرجع » ٠ فنحن ، حين نريد أن نبدأ مما نسميه « الصفر المنهجى » ، نفعل ذلك منهجيا ، وعلى مستوى التصور ، ولكننا، بشرا ، لايمكن أن نبدأ من «صفر مطلق» حضاريا ٠ فما التراث الذى ننطلق منه ؟ والى أى حد ؟ وعلى أى وجه ؟ ومن منظورنا القومى الذاتى ، فان لدينا تراثين كبيرين : التراث المصرى (بتشعباته) ،والتراثالاسلامى٠ وعلى مستوى الانسانية المستقبلة ، يكون علينا تحديد ما يكون عليه أمر الموقف من تراث أهم حضارات البحر

المتوسط وما تولد منها ، من ناحية ، ومن تراث حضارات جنوب آسيا وشرقها ، من ناحية أخرى ٠

٧٩ ـ ومن نافلة القول أن وضع العقول على خط اتجاه الابداع الثقافى والأصــــولى الجديد يتطلب ، من بين ما يتطلب :

ـ تعديل برامج التعليم وطرائقه تعديلا جذريا ٠

ـ تغيير برامج الجامعات وهيئات البحوث من برامج تتمركز على المنظور الغربى الى أخـــرى محورها الذات القومية ٠

ـ التهيئة المادية لأدوات المعرفة والبحث ٠

ـ تنمية الطليعة الابداعية بشريا تنمية قصدية ٠

ولانستطيع التفصيل فى هذا كله فى هذا المجال ٠

ومن المهم ـ جوهريا ـ أن ننمى اتجاهات نفســـية وعقلية تحل محل الاتجاهات القائمة ، التى تتمحور حول فكرة « العبودية » فى كل شىء ٠ وهذه بعض اشارات الى اتجاهات جديدة تتمحور حــول « الحـــرية » ، ومن ثم الابداع :

ـ النظر الى الوقائع من أمام وبأعين مفتوحة ٠

ـ الروح النقدية ٠

ـ روح المثابرة فى اطار النفس الطويل ٠

ـ احترام المعـــرفة لذاتها والنظـر الى قوة الفكر بوصفها سلطة فوق كل السلطات الاجتماعية ٠

ـ روح التضحية والاخلاص عند المشتغل بالفكر ٠

ـ مبدأ تعددية الفكر ونسبيته ومرونته ٠

ـ اتجاه ارادة التمايز مع ارادة التوافق مع الآخرين فى الوقت نفسه ٠

ومن البين أن هذه الاتجاهات تعارض اتجاهات سائدة بيننا ، وهى على الضد منها تماما ٠

٨٠ ـ والآن ، ماذا نريد ؟ نحن ، بوصـــفنا جماعة قومية ، نريد أن نحدد لأنفسنا بأنفسنا رؤية للأصـــول والغايات ، أى فلسفة أو أصوليات ، تحدد لنا الطريق ، بما يصنع نغمة أساسية فى كل مناحى الحياة ، يجعل منها وحدة واحدة متسقة من خلال التعدد والاختلاف ٠ وبعبارة أخرى ينبغى على الابداع الفلسفى المصرى أن يقدم لمصـر خطة الحضارة التى لم تقدم الى اليوم فى حسم ووضوح وتفصيل ، ومن خلال هذا أن يهيىء لتكوين الجماعةالقومية الأعم لكل الناطقين بالعربية ، ومن بعد هذا كله أن يهيىء للحضارة الانسانية حقا ٠

اننا نريد الكرامة لا الخضوع ، الذاتية لا التبعية ،

الأمن والقوة لا الضعف والضياع ، القيادة لا الانقياد ، السيادة لا العبودية ، أن نكون أنفسنا ، أن نسهم فى انقاذ العالم • ولن يتوافر هذا كله أو شىء منه الا بفلسفة (أصوليات) ابداعية تعرف كل شىء وكل الآخرين ، ولكنها تكون منا ، وتتحدث باسمنا ، ومن أجل أهدافنا • ان بداية كل خطة هو وضوح الأصوليات ، ولن يقدم أصولياتنا الجديدة الا الأحرار من كل تبعية أيا كان مصدرها •

الهوامش :

(١) نقصـــد دراسة الاستاذ الدكتور عثمان أمين بعنوان : « رائد الفكر المصرى » ، وهى أوفى وأدق دراسة عن فكر الشيخ محمد عبده ، بصرف النظر عن الموقف من تأويلاتها لذلك الفكر ونصوصه ·

(٢) أنظر مقدمة ترجمتنا لكتاب « الطبيعة والاغـريق » ، تأليف ارفين شرودنجر ، مجموعة الالف كتاب ، دار النهضـــة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٧ ·

ازمة الحضارة الغربية : توصـيف وتأصـيل

اولا : مقـــدمات :

١ ـ الغرب هو الخصم الدائم ، وهو اليوم ، مثل امس وامس الأول منذ حملة بونابرت ، الخطر الداهم ، وهو المصـدر الكامن المستمر للعدوان علينا منذ الاسـكندر المقدونى . هذا هو الادراك المصرى الأساسى منذ مائتى عام ، ولكن أحيانا ما تغطى عليه الشوائب الخادعة أو ارادة بعض اصحاب المصالح فى الفوز ببعض فتات مائدة الغرب ، فيزينونه (أى الغرب) لنا ، ولكن الفكر الصريح

لا ينخدع ، وينبغى عليه ألا يخدع ، ومن واجبه وضع النقاط فوق الحروف • وهذا هو هدف هذه السطور : جلاء حقيقة الغرب فى هذا العصر ، بوصف أزمته التى تخفى على كثير من الافهام ، ثم بتأصيل هذه الأزمة ، أى بردها الى أصول ووضعها على هيئة شبه منطقية •

٢ ـ ان هذا الحديث دعوة للتأمل ولاعادة التأمل ، فى ظل الاخلاص والشجاعة والجسارة واطاعة مطالب الروح النقدية • انه دعوة للتأمل والتفكر التأصيلى ، أى ذلك التأمل الذى يدرك الكل ويحاول النفاذ الى الأصول والمبادىء من خلال الظواهر الجزئية وتلك الخادعة ، بل هو على الأدق دعوة الى اعادة التأمل ، لأن موضوع طبيعة الغرب وطبيعة علاقتنا به موضوع مسه الكثيرون ، ومنذ جدنا العظيم رفاعة الطهطاوى الى اليوم ، لا لشىء الا لأنه موضوع حياة ، ونرى أنه قد يكون على الأصح موضوع حياة أو موت ، لأننا مهددون بالفناء ، كذات جمعية ، أو على الأقل بالانسحاق تحت أقدام السيطرة الغربية • ان اعادة النظر فى جوهر الحضارة الغربية تتطلب الشجاعة العظيمة ، ولكنها الشجاعة التى يوجبها الاخلاص • وعلى كل منا أن يسأل نفسه : لمن نخلص ؟ اننا نخلص لمصر وللمصريين ، ونخلص لاعضاء التجمع الثقافى الجديد الذى يمتد من المحيط الى الخليج مستخدما لغة الضاد ، بل ونخلص لاعضاء الجماعة الغربية أنفسهم

ولبقية أعضاء العائلة الانسانية ، وهذا الاخلاص تحمل لمسئولية النصح الرشيد والاشارة الى المصالح ، وفى مقدمتها بقاء الذات ٠ ولكن هذه الشجاعة التى يحتمها الاخلاص ، تتحول الى جسارة اذا ما كانت تعرض ما لا يريد الأكثرون أن ينظروا اليه ، بل أن يوجهوا اليه أنظارهم - مجرد توجيه ، بينما هو الواقع الحقيقى وما يحيطون به رؤاهم ان هو الا وهم وخداع ٠ انها جسارة الاعلان عن الاختلاف الجوهرى ، والاستعداد للخلاف المبدئى ، مع الغالبية ٠ ولكن حين يكون ما فى الميزان هو المصلحة العظمى ، فان جسارة الاختلاف تصبح واجبا حتميا وليس مجرد ترف فكرى تحدوه الرغبة فى التمايز ٠ وما نأمله من قارئنا هو أن يتسلح بكل أدوات الروح النقدية ، التى تتطلب أول ما تتطلب ألا نظن أن ما عليه أفكارنا صحيح أبدا ومطلقا ، انما الروح النقدية تنطلق من مبدأ امكان صحة المغاير حتى يظهر الدليل ٠

٣ ـ ان الحديث عن الحضارات موضوع للمؤرخ وللمصلح الاجتماعى ولغيرهما ، ولكنه كذلك موضوع للحديث الفلسفى ٠ ان وظيفة الفلسفة ليست تقديم معارف عن بعض الوقائع ، كما هو حال علم التاريخ أو علم الانسان أو غيرهما ، وانما هى تقدم نظرات شمولية أصولية ، وعلى ضوء هذه النظرات نفهم ونفسر ، ثم نحدد من بعد ذلك سبل العمل ونختار ونرفض ، ونريد ولا نريد ٠

وعلى هذا ، فان ما نقدمه هنا ليس عرضـــا تاريخيا ولا دراسة انثروبولوجية ، وانما اطار عام للتفسير وطريقة للنظر تستطيع تسليطها على عشرات الوقائع والمظاهر ، فتتخذ معنى جديدا على ضوء الاطار الشمولى التأصيلى العام الذى نقترحه ٠

٤ ـ ان ما تضـيفه الفلســفة فى هذا المبحث على المستوى المنهجى أو ما قبل المنهجى ، هو رفض الوضوح الزائف الذى يوحى الى الأكثرين بأن الغــرب قوى قوة فائقة ، وبما يؤدى الى وجوب الخضوع له ، أو على الأقل السير على طريقه ٠

٥ ـ ونحن نعترف أن موضوع توصيف أزمة الحضارة الغربية وتأصيلها موضوع خلافى ، ليس فقط لأنه يتناول عدداً ضخما من الظواهر جملة واحدة ، بل وكذلك لأنه ينتهى الى تنبؤات لا سبيل الى التحقق منها الا بعد عشرات من السنين وعشرات ، هذا فضلا عن تدخل الميول الشخصية والأهواء والآمال ٠ ولكننا نود أن توضع الأحكام على محك دروس التاريخ السابقة من جهة وادراك أوجه المصـــالح العليا من جهة أخرى ، ومن هنا أهمية اتجاه « الاخلاص »، وهو وطنى وأخلاقى وعلمى معا ، الذى أشرنا اليه عند مفتتح هذا الحديث ٠

٦ ـ ولعله من المفيد فى هذه المقدمات أن نؤكد على

رفض توجهات « الروح القطعية » ، التى تؤدى الى اعتبار أن موقفى أنا هو وحده الصحيح ، وهى من هذه الجهة تعارض الروح النقدية ، كما تؤدى الى ظن أن موقفى أنا صحيح لوحده والى الأبد صحة مطلقة · بعبارة أخرى ، فاننـــا نود من القارىء أن يرفض بادىء ذى بدء القول بالمطلق فى المعرفة ، فكل معرفة معرضة لأن تخطىء ، وكل معرفة معرضة لأن تجىء بعدها معرفة أوسع منها نطاقا فتظهر جزئية فى هذه الحالة ، وكل معرفة قابلة لأن توجد الى جوارها معرفة مقابلة عن نفس الموضوع ولها نفس نصيب الأولى من دواعى الاحترام بل وادعاء الصحة · فنرجو من القارىء اذن أن يقبل ، من حيث المبدأ ، ان الأفكار السائدة عن قوة الحضارة الغربية وأبديتها ، والتى نعارضـــها فى هذا البحث ، افكار يمكن أن تكون غير صحيحة ·

٧ ـ ونخصـــص وجها من أوجه القــول بالمطلق فى المعرفة ، هو القول بما يمكن أن نسميه «بالمطلق التاريخى»، وهو يمس فى الحقيقة المعرفة والواقع التاريخيين معا ، ويؤدى الى وهم أن القائم الآن قائم الى الأبد · (وتطبيق هذا على الحضارة الغربية هو وهم أنها الحضارة الخالدة لا تبديل لها ، وأن مبادئها وعلمها وأخلاقها هى وحدها الصائبة ·· الخ ··) ·

وعلى الضد من هذا فاننا نؤكد على مايمكن أن نسميه

بمبدأ « التجدد التاريخى » ، لأن الوقائع وحدها ، فضلا عن الاعتبارات النظرية ، تدل على أن التاريخ حامل بالجديد المختلف والثورى دوما ، ولا ثبات الا على نحو مؤقت نسبى . وربما كان مبدأ التجدد التاريخى هذا وجها من أوجه مبدأ أعم هو مبدأ سيادة الحركة على العالم الانسانى .

٨ ــ لابد من التأكيد أن أحد أهدافنا هو الامساك بالحقيقة ، لأن مالا يقام على الحقيقة لا قيام له ، ولهذا فاننا لا نحاول فى هذا الحديث اثبات وجهة نظر غريبة لأنها كذلك وبهدف التميز ، بل نحاول تحرى الحقيقة حتى وان تكاسل الأكثرون عن القيام بذلك ، وقنعوا بالظاهر الذى تنشره الحضارة الغربية عن ذاتها ولمصلحتها . وينتج عن هذا نتيجة ذات أهمية : ذلك أننا سوف نهتم بوصف أزمة الحضارة الغربية وبتأصيلها ، ولن نخلط هذا لا بنقدها ولا بالحكم عليها حكما تقييميا أيا كان .

٩ ــ اننا نحاول تقديم طريقة للنظر فى طبيعة الحضارة الغربية وطبيعة وضعها الحاضر (الذى هو وضع أزمة كما سنرى) ، ولكننا نعى أن هناك طرائق أخرى للنظر فى طبيعة أزمتها ، توصيفا وتأصيلا ، ومن هذه الطرائق النظرية الماركسية فى اطار النظرة الاشتراكية بعامة ونظريات مفكرين من أمثال اشبنجلر وتوينبى ، والمنظور الدينى المسيحى ، وغيرها . ولكل طرائق النظر هذه قيمة

متساوية من حيث المبدأ ، ويكون التفاضل بحسب الشمول والتوافق مع الوقائع وبمدى جوهرية النظرية ، فضلاً عن اثبات التطورات التاريخية اللاحقة لها أو عدمه ٠

١٠ ـ ونحدد من الآن المنظور الذى نأخذ به فى النظر الى ظاهرة الحضارة بصفة عامة : انه المنظور العضوى ، الذى يعنى اقامة مشابهة ، ولكنها مشابهة جزئية وتقترب أحيانا من المجاز ، ما بين كيان الحضارة والكائن الحى، بما يؤدى الى القول بأن الحضارة كيان كلى (وهناك من يرفض من البداية محض كون الحضـــارة كيانا من هذا النوع) يولد وينشأ وينضج ويزدهر ثم يصل الى أزمة الشـيخوخة بما يقترب به الى الانهيار المؤدى الى الموت بالضرورة طال الوقت أم قصر ٠ ولا نأخذ بهذا المنظور الا لأنه بدا لنا مطابقا لوقائع ظهور الحضارات واختفائها من جهة ، ولقدرته على مساعدتنا على فهم أكبر عدد من ظواهر التطور الحضارى من جهة أخرى ٠ ويحتاج تفصيل القول فى النظرة العضوية وتبرير الأخذ بها الى اطالة وافاضة ليس هذا مكانها ٠

١١ ـ ونريد ان نؤكد من الآن على مبدأ التمايز بين الحضارات ، أى حق الحضارات فى الاختلاف بدون اعلاء لواحدة على أخرى ، وهو مايفترض تعدد تلك الحضارات ابتداء ، وعليه فاننا نرفض من الآن وهم الحضارة العالمية الواحدة ٠

١٢ ـ لقد أكدنا من قبل على فكرة الشمول والكلية ، وهى تعنى ، ضمن ماتعنى ، ضرورة الاهتمام بشتى مظاهر الانتاج الحضارى ، من سياسة واقتصاد وحرب الى أخلاق وفكر وفن وعلم ودين الى تفضيلات ألوان الطعام وطرائق الملبس وقضاء أوقات الفراغ • ويعنى مبدأ الشمول والكلية كذلك أن هذه التعددية فى المظاهر انما تدل فى النهاية على عدد أساسى من المبادىء الجوهرية التى تحدد ما قد نسميه « بروح الحضارة » ، أى أسسها واتجاهاتها الأولية •

١٣ ـ ولابد من تأكيد مقابل : فالنظر الى الحضارة فى شمولها وكليتها انما يعنى زمانيا ادراكها فى خلال مسار طويل قد يبلغ المئات من السنين ، بل هو قد بلغ الآلاف منها فى حالة حضارتنا المصرية القديمة • وعلى ذلك فاننا لا نهتم كثيرا فى نظرتنا الى أحوال الحضارة الغربية لا بالجزئيات ولا بعدد محدود من السنين ولا بما يحدث هنا والآن ، وانما ننظر اليه فى مجمل تطورها جوانب وأزمانا معا •

١٤ ـ ونعيد صياغة ما جاء فى الفقرتين السابقتين من منظور مختلف بعض الشىء : فان معالجتنا لموضوع أزمة الحضارة الغربية سيركز على العموميات وعلى المجموعات الكبرى وليس على الاستثناءات ولا على التفاصيل الجزئية •

١٥ ــ ان هدف تحـــرى الحقيقة والبعد عن المنظور التقييمى يفرض علينا أن يكون استخدامنا للمصطلحات استخداما حياديا ، وعلى ذلك فان مصطلحات من مثل « أزمة » و « برجوازية » وغيرها ستستخدم بغير تلوين نقدى أو تقييمى ، فضلا عن التلوين الانفعالى الذى يظهر على الخصوص فى المصطلح الماركسى التقليدى ، بما يؤدى اليه من ازدراء أو تمجيد ٠

١٦ ــ نقصد بمصطلح « الحضارة الغربية » ما كان يسمى من قبل باسم الحضارة « الأوربية » ، وذلك نظرا للتوسع الجغرافى الذى تعدى قارة أوربا بالمعنى الدقيق ٠ ونقصد «بالغرب» ، ليس المفهوم السياسى الذى كان سائدا منذ نهاية ماسمى باسم « الحرب العالمية الثانية » ، والذى كان يشير الى غرب أوربا وأمريكا على أنه « الغرب » والى شرق أوربا على انه « الشرق » ، بل نقصـــد المفهـــوم الحضارى الجامع والذى يغطى المساحة الجغرافية الممتدة من جبال الأورال (وهى الحدود الطبيعية لروسيا) حتى الشواطىء الغربية لامريكا على المحيط الهادى ٠ وقد كان موقفنا دوما ، ومن قبل التغييرات الجذرية التى شهدها الاتحاد السوفيتى وشرق أوربا منذ ١٩٨٩ م ٠ فطالما ، أن الحضارة الغربية تمتد من الأورال الى الامريكتين والى استراليا ، رغم أن قلبها انما كان يقوم فى أوربا وخاصة فى غربها بعد جنوبها ، ولكن تغير مراكز القوى انما هو

دال بذاته على بعض جوانب أزمة تلك الحضارة ، على ما سنرى ·

١٧ ـ ان دراستنا لطبيعة الحضارة الغربية تقوم على خلفية مقارنة مع عدد من الحضارات أتيح لنا دراستها والاقتراب من فهمها بحكم ألوان من التخصص : وهى الحضارة المصرية القديمة ، الحضارتين اليونانية والرومانية ، والحضارة الاسلامية · ورغم أن اتصالنا بغير هذه الحضارات جزئى وغير متعمق ، الا أن هذه الحضارات الأربع ، مضافا اليها حضارة أوروبا المسيحية التى اتصلنا بدراستها بعض الشىء ، هى التى تهم وحدها حينما يكون المرء بصدد فهم طبيعة الحضارة الغربية ·

١٨ ـ ومن أهم المواقف التى نفضل تنبيه القارىء الى اتخاذنا لها من الآن ، وأن كنا سنعود الى تبرير هذا الموقف من بعد ، اننا نرفض وهم « العصر الواحد » الذى يقع فى خطئه الأكثرون حين يظنون اننا نعيش مع الحضارة الغربية فى عصر واحد ، ويقولون « العصر الحديث » بغير تمييز ، بينما أقل المقبول هو أن يقال اننا نعيش فى «وقت» واحد ، وحتى هذا القول قد لايكون دقيقا كل الدقة ، لأنه ليس هناك وقت مطلق : ألا تمر ساعة ، هى الساعة ذات الستين دقيقة ، ولكنها ليست نفس الوقت لمسافر من قطر الى قطر وطالب يمتحن وعاشق ينتظر معشوقه وصياد ينتظر

فريسته وطبيب جراح ومريض يخضع لجراحة دقيقة ونائم يتثاءب كسلا ؟

١٩ ـ اننا نحاول النظر الى الحضارة الغربية بغير تمجيد وبغير استنكار معا ، كما أشرنا ، وينتج عن هذا ، أو يتصل به اتصالا وثيقا ، أننا لا نستطيع ، ولا ينبغى ، أن نقول ان حضارة الغرب « أحســـن » من غيرها أو « أسوأ » ، فهى ليست أحسن منا ، كما أننا لسنا أحسن منها ، وكلا القولين الأولين سواء فى خطئه · اننا نقول بالمساواة بين شتى الحضارات، من أعظمها قوة الى أيسرها قدرة حربية ، من أطولها عمرا الى أقصرها حياة ، ولاسبيل عندنا الى أن نقول ان الحضـــارة الغربية ذات الحول والطول « أحسن » أو « أفضل » من حضارة أصغر قبائل الامازون أو استراليا · والأساس فى هذا أن التقييم فعل ذاتى ، وكل تقييم يعتمد على معيار مختار ، فمن سيضع هذا المعيار ؟ بعبارة أخرى : من له الحق فى أن يحكم على الآخرين ابتداء من اختياراته هو ؟ بل قل : من ذا الذى له الحق أن يكون حكما وطرفا فى القضية فى وقت واحد ؟ ذلك أن القول بأن حضارة « أحسن » من غيرها يعنى اختيار أوضاع تلك الحضارة لتكون معيارا للحكم على غيرها ، وهو أمر يظهر خطره اذا طبقناه على العلاقات بين الأفراد ومحاولة تقييمهم ابتداء من واحد منهم على التعيين · ومن جهة أخـــرى ، فان هذا لايعنى عدم وجـــود فروق بين

الحضارات من حيث القوة أو التأثير أو البقاء أو الغنى أو غير ذلك من أضداد هذه الصفات ·

٢٠ ـ وننهى هذه المقدمات بالاشارة الى أن من أول أهدافنا محض اثارة المشكلة والدعوة الى التأمل حولها · كما أن فعل الفحص الذى سنقوم به فى الصفحات التالية قد لا يقل أهمية بذاته عن النتائج التى سوف نتوصل اليها ، اذا ما توصل على الأقل الى اقناع القارىء الناقد أن وضع الحضارة الغربية ليس تماما على ما يبدو عليه فى ظاهره وفى وعى قادتها وأوهام الخاضعين لها ، على نحو أو آخر ، فى ميدان واحد أو فى سائر الميادين ·

ثانيا : أهمية الموضـــوع :

١ ـ ان تناولنا لموضوع أزمة الحضارة الغربية ليس تناولا « معرفيا » ، أى بقصد احراز معرفة لأجل العلم بها وحسب ، بل هو تناول « فلسفى » ، وبالتالى فانه من أجل الحياة وتوجيه الفكر · فما أهمية هذا الموضوع ؟ اننا نعتقد أن تناوله والوصول بشأنه الى اتفاق وطنى وقومى عام ضرورة لازمة فى وضعنا الحضارى ، بل هو مقدمة ضرورية من مقدمات اقامة ثقافتنا الجديدة ، فضلا عن كونه مقدمة أساسية نحو بناء فلسفتنا المصرية الجديدة (والتى ستكون بدورها تأسيسا لفكر الثقـــافة المشتركة لبلاد لغة الضاد) · اننا نبدأ من منطلق أساسى : اننا لبنى

ثقافة جديدة وحضارة جديدة تماما ، تختلفان فى نفس الوقت عن حضارة الغرب وثقافته وعن حضارتنا وثقافتنا السابقتين (وليس هنا مكان تاسيس هذا المنطلق وتبريره وتفصيل القول فيه) • ولكن الغرب هو الذى يتسيد على أحوال أقطار الكرة الأرضية اليوم ، ولذلك فانه يعوق قيام ذاتيتنا الجديدة ، فضلاً عن نجاحه الكبير فى اتخاذ مروجين لسيادته من بين صفوفنا ، وهذه الاعاقة ، التى قد تؤدى الى انسحاقنا تحت أقدامه بل والى فنائنا كذات حضارية، تشكل أزمة عظمى نعيش فيها وان لم يدرك ذلك البعض منا ، أو لم يدركوه على هذا النحو على التحديد •

فى ظل هذه الأزمة العميقة الشاملة ، وجب أن تحدد طبيعة الخصم ومصدر الخطر ، لنعرفه على حقيقته ، لننتبه الى الأخطار ولننبه الى الأوهام التى ينشرها هو ، ويروجها له أعوان مجندون أو متطوعون وهم لايدرون • ان مستقبلنا فى خطر ، بل ومستقبل البشرية نفسها •

٢ ـ ان من نتائج هذه الدراسة ادراكا جديدا للحقل الحضارى الذى نتحرك فى اطاره ، وسوف نرى أنه يترتب على قبوله ، أو رفضه لمن شاء ، نتائج ذات أهمية عظيمة، لأن قبول القول بأن الحضارة الغربية فى أزمة ، وأن هذه الأزمة ستؤدى بها الى التفسخ والانهيار ، يؤدى الى وجوب اتخاذ اختيارات حضارية جوهرية والى اتخاذ مواقف فلسفية جذرية •

٣ ـ ان الذى يجعل من وضع هذا الموضوع فى بؤرة التأمل من كل نوع أمرا ضروريا هو الخطر الشامل الجاسم للسيطرة الغربية على شتى أمورنا • ان هذا الخطر أصبح حاضرا وماثلا منذ عام١٧٩٨م،وما أندر الفترات التىخفت فيها تلك السيطرة،ولا نقول اختفت،ولكن الشاهد أنها تميل الى التأكد والرسوخ والاتساع،والى اكتساب عدد هائل من العمـــلاء الواعين وأولئك المتطوعــين وأولئك المتوهمين والسذج ، فى السنوات العشرين الأخيرة بخاصة ، وشاهد على ذلك الحضور الغربى العسكرى الذى لم يسبق له مثيل قريبا منا فى الخليج بمناسبة غزو حكام العراق للكويت. ناهيك عن الســـيطرة الاقتصـــادية على مصر وغيرها والسيطرة الاعلامية والفنية والثقافية بعامة ، تحت أسماء ودعاوى لاينبغى أن تخفى حقيقة ما وراءها • أن الوطنية والقومية تقول برفض السيطرة الغربية ، وسيساعد موقفها (أى الوطنية والقومية) أن نفطن الى حقيقة موقف الغرب فى هذا العصر ، وسيكون هذا مؤديا ليس فقط الى القاء هذه السيطرة الأجنبية البغيضة عن أكتافنا والقضاء عليها، بل وكذلك الى اثبات سيادتنا الحقيقية •

٤ ـ وسبب حيوى آخر للاهتمام بموضوعنا هذا : أن أزمة الغرب ، المؤدية الى مايمكن أن نسميه « بأمراض الشيخوخة الحضارية » (باستخدام محايد لكلمة «مرض»)، يمكن أن يصيبنا بسببها نصيب من تلك الأمراض ، لو لم ننتبه جيد الانتباه الى طبيعتها من حيث هى كذلك (ومن

أظهرها للعيان وأقربها منالا ظاهرة الجشـع الاستهلاكى وسيادة روح العنف وسيادة الروح العدوانية بازاء كل شىء) • بعبارة أخرى : مايصيب الغرب يهمنا لأنه تهديد لنا نحن أنفسنا • وقد يقول البعض (ممن رضـــع لبان الثقافة الغـــربية على ما ظن ورفض التفكير على غير طريقتها المعتادة) ان العصر واحد وهذه ظروف العصر وعلينا مجابهتها كما يجابهها القائد الحضارى الذى هو الغرب • ونحن نرفض مفهوم العصر الواحد ، وفى المقابل ندرك بوضوح شديد أن شتى الحضارات وسائر الأمم اليوم « تقف جميعا على مركب واحد » كما يقال ، أى أن مايصيب غيرى قد يصل الى والتأثيرات متبادلة ، ولكن الذى نؤكد عليه هو أن كوننا جميعا على مركب واحد لا يعنى على الأخص أن الحضـــارة الغربية ليست فى أزمة عميقة ، ويهمنى كثيرا ان أدرك شتى أبعادها لأبعد أخطارها عنى، أنا الحضارة الجديدة الناشئة ، والتى ربما ستكون المهدة للعالمية الجديدة الحقة وحدها • فهى خسارة لأهل الغرب أنفسهم ألا ندرك حضـــارتهم فى هذا العصر على حقيقة وضعها •

٥ ـ ونشير هنا سريعا الى أن مايظن أنه قد تحقق اليوم من « عالمية » شاملة انما هو عالمية زائفة ، لأنها تدعى وحدة الكرة الأرضية لأول مرة ، بينما الحقيقى انها لاتعنى الا امتداد اليد العسكرية والسياسية والسيطرة الاقتصادية

والثقافية للحضارة الغربية لتصل الى كل أجزاء المعمورة ، أو قل ان العالمية الزائفة لاتعنى الا كون شتى بلدان الأرض قد أصبحت سوقا تباع فيه منتجات الغرب ، ولا يسمح لأهلها بأن ينتجوا وانما أن يستهلكوا وحسب (وانظر الى خيانة تحطيم البنية التحتية للصناعة ، بل وللزراعة ، المصرية فى العهود الأخيرة ، حتى أصبح الفلاح المصرى يستورد الجبن والبيض فضلا عن القمح) • أما ما نتحدث عنه كامكان فى المستقبل غير المنظور فهو العالمية الحقيقية التى تشارك فى صنعها كل أمم الأرض وشتى حضاراته ، وبعد بناء حضارتنا الجديدة ، حتى تكون لنا يد طولى تناسب مكاننا فى صنع العالمية الجديدة الحقة ، وعلى أساس من العدالة والمساواة مع شتى الأمم ، وبعد ادراك الغرب أنه حضارة بسبيل التحلل ، وأن اصراره على زعم قيادة شتى الشعوب كفيل بوضع الجميع على شفا الجحيم •

ومن الواضح أننا نميز تمييزا حاسما مابين «حضارة الغرب» كتنظيم وبين أهل بلدان الغرب ، فهم بشر مثلنا ، منا ومنهم الصالح والطالح ، ولنا معهم كأفراد علاقات شتى ، ولا نريد لهم الا الخير كما نريد لأنفسنا •

٦ ــ ولاننشك أن معالجة أزمة الغرب على نحو تأصيلى قمينة بأن تضعنا على الطريق الصحيح لادراك الاختلاف النوعى العميق ما بين أزمته وأزمتنا • وبايجاز شديد

نقول : ان أزمة الغرب أزمة شيخوخة وتحلل وأزمتنا ازمة نشوء وبناء ٠

٧ ـ أشرنا فى النبذة الرابعة السابقة الى أننا جميعا، نحن والغرب ، « على مركب واحد » (بســبب ثورات الاتصالات والمواصلات والمعلومات وغيرها) ، والى اننا نرفض فى نفس الوقت فكرة « العصر الواحد » ٠ ويمكن أن نعيد صياغة هذا الموقف على نحو موجز : ان أزمة الغرب تهمنا كثيرا (لأننا « على مركب واحد ») ، ولكنها لا تخصنا لأنها ليسـت أزمة ثقـافتنا الوليدة (ومتعثرة الخطى فى الواقع بسبب الغرب نفسه الذى يقف لخطرها بالمرصاد) ، ولا هى أزمة أمتنا ، ولانحن مسئولون عنها على أى نحو (لأن العصر ليس واحدا ، بل للغرب عصره ولنا عصرنا ، وان كان الاثنان متزامنين وحسب » ٠

٨ ـ ومرة أخرى نؤكد على أن الهدف فى هذه الدراسة ليس التنديد ، بل هو الفهم ثم تعبيد الطريق للاشارة الى مخرج لنا من أخطار الغرب ٠

ثالثا : تحديدات وتعريفات أساسية :

١ ـ استخدمنا فيما سبق ، وسنفعل فيما يلى ، وبكثرة، مصطلحى « الحضارة » و « الثقافة » ٠ ونقترح التعريف

التالى لمصطلح « الحضـــارة » : « هى كل متجانس من الظواهر الاجتماعية (أى تلك الظـــواهر التى تنتج عن اجتماع الانسان) يلتف حول عدد من القيم الأســـاسية ويتميز بالوعى بالانتماء الى بؤرة مشتركة ، وقد يضم أمة واحدة أو عددا من الأمم » · وينتج عن هذا التعريف رفض زعم كون أية حضارة أنها الحضارة « المطلقة » (وهو ما تزعمه الحضارة الغربية لنفسها) · فلا يوجد مطلق بين الحضارات ، ولا توجد حضارة مطلقة · ونلاحظ أن كل حضارة ، منظورا اليها من نظر أعضائها تزعم لنفسها انها خالدة ، ولكن حكم قانون الحياة والموت ، كما نرى من شواهد التاريخ ، ينزل كالسيف ، ولا يرحم حتى تلك الحضارات التى تدعى أنها ذات ميلاد الهى ·

٢ ـ كثيرا ما يتداخل استخدام مصطلحى « الثقافة » و « الحضارة » ، وهناك خلاف مستمر على خط التمايز بينهما ، ويحدث أن يستخدم احدهما مكان الآخر · ولكن « الحضارة » أعم من « الثقافة » ونقترح التعريف التالى للثقافة : « هى مجموعة التصورات والقيم التى تحدد التوجهات الفكرية والشعورية لمجتمع ما » ، وقد يشمل أيضاً : « وانتاج ذلك المجتمع فكرا (بأعم المعانى للفكر بما يشمل الدين والأخلاق » وفنا المجسد لتلك التصورات والقيم » ·

٣ ـ من المهم أن نتصل بعض الشيء فى المضمون

الذى يبدو لنا من وراء كلمة « الغرب » · ان كل حضارة كائن معقد التركيب ممتد العلاقات في المكان وخاصة فى الزمان · والحضارة الغربية كانت تسمى الى وقت قريب بالحضـــارة الأوربية ، ســـــواء عند أهلها أو عند أهل الحضارات الأخرى ، وعلة ذلك أنها فى المحل الأول نتيجة نشاط شعوب هذه القارة ، ولكن امتداد الهجرة الأوربية خـــــارج أوروبا وتوطنها فيما ســـمى باسم الأمريكتين واستراليا وغيرها من الأماكن ، وعلى الأخص قيام المجتمع الذى استقر فيما عرف باسم الولايات المتحدة الأمريكية ، وتوليه دورا قياديا علا بالتدريج منذ ١٩١٤ ميلادية وخاصة منذ ١٩٤١ (سنة اشتراك تلك الدولة فيما سمته الحضارة الغربية « بالحرب العالمية الثانية ») ، كل هذا أدى الى الشعور بقصور اســـم « الحضارة الأوربيـــة » والى أن يستخدم مكانه اسم « الحضارة الغربية » ، التى تصبح منطقة امتدادها الرئيسية اذن هى أوربا من جبال الأورال حتى المحيط وأمريكا الشمالية الى جانب المناطق الأخرى التى تأتى فى المرتبة الثانية أو الثالثة · ومهما يكن من أمر ، فان « توابع » الحضارة الغربية خارج أوروبا انما تنتمى بشريا وثقافيا الى أوروبا وتنطبق عليها مؤثرات المكان التى ساهمت فى تحـــديد مصائر تلك القـــارة · وربما كانت المنطقة الحاسمة فى نشأة حضارة أوروبا هى جنوبها المطل على البحر المتوسط ، ليس فقط لأن البحر المتوسط شهد ميلاد اليونان وروما ، بل وكذلك لأنه هو

الذى يربط أوربا بآسيا ، تلك القوة الهائلة التى خرج منها ركن جوهرى جدا من أركان الثقافة الأوربية الا وهو الديانة المسيحية • وهكذا فان منطلق الامتداد المكانى والثقافى لأوربا هو أولا حوض البحر المتوسـط ، ومع ذلك فان الحضارة الغربية اخذت حديثا فى الارتكان الى امتداد مكانى نحو الشرق (شمال آسيا) والغرب (الامريكتان) ، ولهذا البعد المكانى الجديد اهميته الاقتصادية والسياسية الواضحة •

كان هذا عن البعد المكانى للحضارة الغربية الحديثة• أما عن البعد الزمانى ، وهو أهم فى نهاية الأمر ، فانه يعود ، اذا قصرنا حديثنا على العصور التاريخية وتركنا فترة بربرية الشعوب التى سميت فيما بعد بالأوربية ، يعود هذا البعد الزمانى الى اليونان أولا ثم الى روما • وعن اليونان أخذت الحضارة الغربية أهم أسس تكوينها العقلى والفنى : أخذت الفلسفة والعلم والأدب والفن وأخذت أيضا أيضا تراث اليونان السياسى وخاصة فكرة الديمقراطية (أى حرفيا باليونانية « حكم الشعب ») ، كماأخذت من روما عناصرسياسية أخرىأهمها فكرة التنظيمالامبراطورى وعلى الأخص القانون الرومانى الذى لاتزال تأثيراته واسعة فى التشريعات الغربية عامة وفى وسطوجنوبأوربا خاصة • على أنه ينبغى لنا أن نضيف بعدا أبعد من اليونان : ذلك هو مصر • فالحضارة المصرية كانت أكثر

حضارات البحر المتوسط تأثيرا منذ قيامها التاريخى فى الألف الرابعة السابقة على الميلاد (على الأقل) حتى قيام الحضارة اليونانية في المائة التاسعة ق٠م٠ وهى قد أثرت أبعد تأثير على اليونان وخاصة فنا وعلما ، وهى بهذا ، من خلال اليونان ، أحد العناصر المقومة للتراث الأوربى ٠ بعد اليونان وروما ، تأتى الديانة المسيحية التى نشأت فى فلسطين ، ولكن تحت تأثير حضارات الشرق الأوسط بصفة عامة وخاصة حضارات سوريا ومصـــــر ، وغزت قلوب اليونان وروما ثم برابرة أوروبا الوسطى الذين كانت هى السبب الأساسى فى جعلهم « يتحضرون » شيئا فشيئا ، الى جانب التدخل السياسى والعسكرى الرومانى ٠ وقد أصبحت المسيحية هى عماد كيان الشعوب الأوربية بعد انهيار الامبراطورية الرومانية الغربية تحت أقدام الغزاة البرابرة الجرمان النازلين من الشمال (٤٧٦ ميلادية) وحتى القرن الثالث عشر الميلادى ، حين تبدأ سلطة الكنيسة فى الانهيار وتبزغ بدايات ما سيسمى عصر « النهضة » الأوربية والتى سيكون من أهم معالمها العودة الى دراسة اليونان والرومان باعتبارهم أســـــاتذة العقل الأوربى ، ولاتزال « النزعة الانسانية » فى الحضارة الغربية حتى اليوم تعنى العودة الى قيم الحضارةاليونانية بوجه خاص٠ وهكذا ، فان الامتداد الزمانى للحضــــارة الغربية يعود الى هذه العناصر : الحضارة المصرية، اليونان، الرومان ،

والمسيحية (وعن طريقها حضارات الشرق الأدنى بصفة عامة) .

وهناك عوامل صلبة تجعل من الممكن التحدث عن « حضارة غربية » بصفة عامة تمتد من جبال الأورال حتى المحيط الهادى شرقا ، وأهم هذه العوامل العامل الجنسى والعامل اللغوى والعامل التاريخى ، الى جانب العاملين الثقافى والدينى الذين أشرنا اليهما . فكل هذه الشعوب تنتمى الى ما يسمى « بالجنس القوقازى » (مع بعض استثناءات نادرة) ، كذلك فانها تنتمى (مع استثناءات نادرة أيضا) الى نفس المجموعة اللغوية التى تسمى مجموعة اللغات « الهندية ـ الأوربية » . وربما كان عنصر اللغة هذا هو العنصر الحاسم فى ربط أقسام الحضارة الغربية رغم الاختلافات السياسية الشديدة : فكل اللغات الموجودة هناك اليوم (أو على التقريب) تشترك معا فى خصائص مشتركة ، وكلها على الأخص متأثر فى الصميم باليونانية واللاتينية ، بما فى ذلك مجموعة اللغات الجرمانية ومنها الانجليزية والالمانية . ولهذا فانه ليس من النادر أن تجد مفكرى الغرب اليوم يستشهدون بنصوص من شيشرون الرومانى أو أفلاطون اليونانى وكثيرا ما يتم ذلك باللاتينية نفسها أو باليونانية . أخيرا فان كل التكوينات السياسية الأوربية التى ظهرت فى تاريخ أوربا الحديث انما نتجت عن الوضع السياسى لأوربا فى القرون

الوسطى ، وهذا الوضع هو الوريث المباشر للامبراطورية الرومانيـة بل وامتداد له ، بحيث ان بعض الخـــلافات السياسية (مثلا فى وسط أوروبا وشرقها) انما هى وثيقة الاتصال بأوضاع أوربا خلال عصر تاريخها الوسيط وخلال خضوعها للامبراطورية الرومانية ٠

٤ ـ أهم خصائص الحضارة الغربية :

اليوم هو ابن الأمس كما أشرنا ، والمدقق فى مظاهر الحضارة الغربية اليوم ، وفى مظهرها الفكرى بشـــكل خاص ، يجد أن كل تلك المظاهر مرتبطة ارتباطا حيويا ببدايات الحضارة الغربية منذ عصر مايسمى « بالنهضة الأوربية » : فلايزال هناك اليوم من يعود الى مكيافلى فى ميدان السياسة والى مارتن لوتر فى ميدان الدين والى ديكارت فى ميدان الفلسفة والى مايكل انجلو وليوناردو دافنشى فى ميدان الفن التشكيلى والى شكسبير فى ميدان الأدب وغير ذلك ٠ فمن الضرورى اذن أن نحدد الاتجاهات العامة الأصلية للحضارة الغربية ككل حتى نستطيع ان نحسن فهم اتجاهاتها اليوم ٠

ولعل أسهل الوسائل وأوثقها معـا هو الاشارة الى اختلاف تلك الحضارة عن الحضارة التى سادت أوربا قبل ذلك ، والتى سماها الغرب باسم حضارة القرون الوسـطى المسيحية ، والتى تمتد من القرن الخامس الميلادى على

التقريب حتى القرن الخامس عشر · وقد كان من العوامل التى هيأت بدايات تقوض أركان الحضارة الأوربية الوسيطة منذ القرن الثالث عشر ماهو دينى وماهو اقتصادى وماهو سياسى · فقد أخذت السلطة البابوية فى الضعف ، وتتوج هذا الاتجاه بانفصال البروتستانت مع مارتن لوتر عنكنيسة روما ، كما بدأت طبقة من التجار تزداد ثراء وقوة وخاصة فى ايطاليا ، وذلك على حساب الكنيسة من جهة والنبلاء الاقطاعيين من جهة أخرى · أخيرا أخذ الملوك ، فى غرب أوربا على الأخص ، يتطلعون نحو استقلال حقيقى عن الامبراطور الجرمانى وعن السلطة البابوية ، وهو مايسمى باتجاهات القومية ، التى كان أظهرها القومية الفرنسية والانجليزية · وقد أدى كل هذا معا الى تغير مطرد فى العقلية الأوربية التى أخذت تهجر الاهتمامات الدينية شيئا فشيئا ، حتى أصبح سادة المجتمع ليسوا هم رجال الدين بل أصحاب المال والتجارة ، وأخذ العلماء يتجهون ببحوثهم نحو الطبيعة ذاتها مبتعدين عن سلطة الكنيسة (التى كانت تقوم من الناحية الفكرية على التوراة والانجيل من جانب وأرسطو من جانب آخر) ، وجرؤوا فى نهاية الأمر على سبيل المثال على اعــــلان أن الأرض هى التى تدور حول الشمس وليس العكس ، كما كانت الكنيسة تؤكد مستندة الى نصوصها المقدسة ، وأصبح اهتمام رجال الأدب والفن متجها نحو اليونان والرومان يبحثون مؤلفاتهم ويقلدونهم

فى اتجاهاتهم ، وخاصة فى اهتمامهم المركزى بالانسان وليس بالالوهية ، وبهذا العالم الدنيوى وليس بعالم آخر دينى ، كانت الكنيسة ترهب به الخواطر وتسيطر عن طريقه على النفوس · ومما ساعد على هذا ، أى على تحـــرر العقول والقلوب من سلطة الكنيسة ، عاملان : الأول هو اختراع الطباعة فى ١٤٤٠ م · ، وهى قد ساعدت على سرعة انتشار الأفكار وزيادة سرعة تقوض سلطةالكنيسة، والثانى هو الكشوف الجغرافية التى أدت الى نتيجتين : ثراء جديد للتجار ، وبالتالى ظهور طبقة اجتماعية قوية مؤثرة (بدايات البورجوازية) ، ثم شعور المفكرين بأن العالم أكبر مما كان يتصور ، مما ساعد على تقويض فكرة العالم المحدود الذى كانت تقول به وتستفيد منه الكنيسة ·

وقد تحددت منذ عصر النهضة الأوربية (من ١٤٥٣ حتى حوالى ١٦٠٠ ميلادية) أهم معالم الحضارة الغربية التى أخذت فى التأكد مع مرور الوقت حتى اليوم ، ويمكن حصر أهم تلك المعالم فيما يلى :

١ ـ الاهتمام بحياة الانسان فى هذا العالم ·

٢ ـ الاعتقاد الدينى لاينبغى أن يخضع الا لضمير المعتقد ·

٣ ـ الاهتمام بسلطة العقل ضد سلطة الكنيسة ·

٤ ـ العلم الطبيعى ميدان مستقل عن الاعتقاد الدينى ٠

٥ ـ التأكيد على أهمية الاستفادة من العلم : فالعمل هو الذى يوجه النظر ، ومن هنا كان الاهتمام بالتكنولوجيا الى جانب البحث العلمى الخالص٠

٦ ـ المجتمع مكون من أفراد لكل منهم استقلاله ، ومن هنا الاتجاه نحو الفردية الشديدة ٠

٧ ـ الطبيعة لا نهائية وليست ، كما كانت الكنيسة تقول ، كالكرة المحدودة ترأسها الالوهية ٠

وبطبيعة الحال فقد ظهرت تيارات فى الحضارة الغربية تمارس ضد بعض هذه الاتجاهات والى درجة شديدة من العنف (مثلا التأكيد على الجماعة ضد الفرد فى الثورة السوفيتية) ، ولكن هذا نفسه يؤكد على الاتجاه المسيطر وهو الاتجاه الذى تقوم ضده الثورة ، ولولاه لما قامت ٠ ولعل أهم مراكز الاهتمام فى الحضارة الغربية يتلخص فى الكلمات التالية التى ينفى كل منها ضدا له : الانسان ـ الفرد ـ العلم الطبيعى ـ العمل ـ العقل ـ اللانهائية ، وتقابلها كلمات : الألوهية ـ المجتمع ـ الدين ـ المعرفة لأجل المعرفة ـ العقيدة ـ مفهوم الكون المحدود النهائى ٠

نعم ، هناك عالم واحد بالمعنى الجغرافى والطبيعى ، ولكن ليس هناك عالم واحد بالمعنى الثقافى أو الحضارى ،

بل عالمين متعددة · ويمكن تجميع « العوالم » أو «العالمين» الثقافية فى المجموعات الأربع الكبرى التالية :

(أ) اطار الحضارة الغربية (ومركزها أوربا الغربية، ولها جناحان هما أوربا الشرقية وأمريكا الشمالية ، وتوابع منها أمريكا الجنوبية واستراليا وغيرها) ·

(ب) اطار المجتمعات التى كانت مشتركة فيما مضى فى نطاق « دار الاســـلام » (وتضم قســـمين كبيرين : المجتمعات الناطقة بالعربية وتلك غير الناطقة بالعربية . وهذا القسم الأخير غير متجانس ، على عكس القســـم الأول) ·

(جـ) اطار مجتمعات جنوب آسيا وشرقها (وتضم ثلاثة اقســـام) :

١ ـ جنوب آسيا ومركزه الهند ·

٢ ـ شرق آسيا ومركزه الصين وجناحاه هما اليابان وكوريا ·

٣ ـ جزر وبلاد جنوب شرق آسيا ، وهى تتأرجح بين نفوذى القسمين السابقين ·

(د) اطار المجتمعات الأفريقية ·

وفى هذه المجموعات الاربع تقف الحضـــارة الغربية وحدها من حيث هى الحضارة المسيطرة والمكتملة النمو ، بينما تقف المجموعات الثلاث الأخرى معا من حيث انهـا جميعا فى موقف الدفاع ضد الحضارة الغربية بطرق شتى، منها تقليد الغرب ذاته ٠

وليس أدل على الاختلاف بين الحضارات من اختلاف قيمها الأخلاقية والجمالية ، وتنوع تصوراتها لطبيعة موقف الانسان من العالم بصفة عامة : هل هو موقف هجوم عليه أم موقف محاولة التوافق معه ؟ هل يكون موقفنا من الطبيعة أن « نغيرها » و « نستغلها » ، أم أن نحترمها كما هى ؟ وما الأساس فى اعتبار قيم الأشياء : هل هو الكم أم الكيف ؟ وما هدف الانسان من تعـــاونه مع الآخرين ؟ استغلالهم واستجلاب « الربح » منهم أم مؤاخاتهم ؟ الى غير ذلك من المسائل الهامة ، التى نضيف اليها اخيرا ٠ وليس آخرا ، هذه المسألة : ما الانسان ؟ هل هو شيئان ، « روح » ، كما يقولون ، و « جسد » ؟ وفى هذه الحالة ٠ هل هما متساويان من حيث الأهمية ، أم لأحدهما الأسبقية على الآخر ؟ أم أن الانسان انما هو كائن متكامل موحد واحد ؟ واذا اســتعرضت سائر الحضـــارات القائمة والسابقة ، لوجدتها تختلف اختلافا بينا فيما بينها حول هذه المسائل ، وكل حضارة ستشكل فى هذه الحالة «عالما»

خاصا بها له قواعده التى تختلف تماما عن قواعد العوالم الأخرى التى هى تلكم الحضارات المختلفة ٠

٦ ـ **تعريف مفهوم « الأزمة »** : نعنى باصطلاح « الأزمة » ما يلى : « الأزمة هى مشكلة وصلت الى حد الاستعصاء » ٠ فالمواقف التى يتعرض لها الانسان ، والمجتمعات كذلك ، يمكن تسميتها بالمشكلات من حيث انه يكون هناك فى كل موقف هدف يراد بلوغه وعوائق تقف دونه ، وسلوك الانسان هو محاولة لبلوغ الهدف بالتغلب على العوائق ٠ وبهذا المعنى ، فان حياة الانسان بأسرها سلسلة متصلة متداخلة من فقدان الاتزان ثم استرجاعه ، وهكذا دوما ٠ أما حين يصل المرء ، أو المجتمع أو الحضارة ، الى موقف تزداد فيه العوائق بحيث يصبح تحقيق الهدف أمرا غير ممكن أو شديد الصعوبة الى درجة لاتحتمل ، عند ذلك نكون قد وصلنا الى مرحلة الأزمة ٠ وهكذا فان الأزمة مرحلة فى تطور ، وهى مرحلة تمتاز باهتزاز الاتزان السابق اهتزازا شديدا، وتستمر طالما لم يكن فى الاستطاعة الوصول الى اتزان جديد ٠ ولهذا ، فانها ، من جانب ما ، « انقطاع » ، وهى فترة صعبة تفقد فيها السيطرة الكاملة على الموقف ، وتتميز بالمظاهر الحادة ، فهى ليست فترة شدة وضيق وحسب ، بل هى كذلك فترة توتر وصراع ، فيها اضطراب وقلق ، ومشقة وصعوبة ، وعسر وانزعاج ، هى ارتجاج واهتزاز ،

وزلزلة أحيانا وزعزعة ، وهزة قوية وزحـــزحة ، وقلقلة وحركة شديدة ورجة ٠

رابعا : علامات أزمة الحضارة الغربية (التوصيف) :

(أ) ثلاث مقــدمات :

١ ـ نقدم لعلامات أزمة الحضــارة الغربية بثلاث مقدمات ٠ المقدمة الأولى أن أصواتا بارزة أمينة مسئولة من بين الغربيين أنفسهم ، قد تكاثرت ، ومنذ الحدث الجلل الذى كان أول الهزات الكبرى للحضارة الغربية ، الا وهو حربهم الشــاملة الكبرى الأولى ، والتى ســموها أولا « بالحرب الكبرى » أو « الحرب الأوربية الكبرى » ، ثم أطلقوا عليها من بعد ذلك « الحرب العالمية الأولى » (فى مقابل ماسموه أيضا « بالحرب العالمية الثانية » ، وهى فى الواقع حرب غربية فى قضها وقضيضها) ، والتى امتدت أربعة أعوام من ١٩١٤ م الى ١٩١٨ م ٠ ومنذ ذلك الوقت وأصوات الغربيين المعلنة ببداية تفسخ الغرب وحضارته وتحللها تمهيدا لانقضاء دورتها ، تتزايد ، وهى تمتد من الكتاب الأخلاقيين الى الأدباء الى نبلاء الســـاسة الى المؤرخين الامناء الى بعض الفلاسفة ورجال الدين وغيرهم، أو قل فى أقل القليل ان هناك أصواتا بارزة تشــير الى وجود أزمة عظيمة ، ولنسمها « بالشرخ العظيم » ، فى جسد الحضارة الغربية منذ ١٩١٤ م ٠ على الأخص ٠

٢ ـ المقدمة الثانيـة أن معالجة مظاهر أزمة الغرب فى عصره المسمى بالقرن العشرين الميلادى (وهو توزيع زمنى يخصه ولا شأن لنا به فى حقيقة الأمر) ينبغى أن تتخذ لنفسها خلفية مقارنة أو اطارا مرجعيا ما كان عليه وضع الحضارة الأوربية فى عصرهم المسمى بالقرن التاسع عشر الميلادى ، وهو عصر الاستقرار (النسبى) والازدهار العظيم للغرب • واذا كانت الحضارة الغربية (الاوربية) قد قامت على أنقاض مايسمى بالحضـــارة المسيحية فى أوربا ، والتى وصلت الى قمتها فى عصرهم المسمى بالقرن الثالث عشر الميلادى ، ثم دخلت على الفور الى مرحلة الأزمة والتحلل وأخذت فى الانهيار السريع ، اذا كانت الحضارة الأوربية قد قامت على أنقاض سليفتها المسيحية ، وبزغت بداياتها منذ عصرهم المسمى بالقرن الرابع عشر الميلادى وظهرت بعض أسسها فيما سموه «بعصر نهضتهم» (الأوربية) والذى يمتد على التقريب ، كما رأينـا ، من منتصف القرن الميلادى الغربى الخامس عشر الى نهاية القرن الســادس عشر ، فان القرن السابع عشر الميلادى هو عصر التكوين المنظم والتأسيس الحقيقى بعد ارهاصات عصر « النهضة » ، الذى يعد فى الحقيقة عصر النشأة وبدايات التكوين • وفى هذا العصر الجديد ، القرن السابع عشر الميلادى ، يستقر التشكيل الجديد للقوى الجديدة التى ستنتسب اليها الحضـــارة الجديدة الغربية ، وأهم هذه

القوى على الاطـــلاق قوة « البورجوازية » أو الطبقـة الوسطى التجارية أولا ثم المالية والصناعية من بعد ذلك . أما عصرهم المسمى بالقرن الثامن عشر الميلادى فانه عصر التمكن وفترة الانطلاق فى البناء التفصيلى ، وليس عجبا أن يشهد فى قرب نهاياته انطلاق مايســـــمى « بالثورة الصناعية » فى انجلترا من جهة والثورة الفرنسيةالكبرى (١٧٨٩م) من جهـــة أخرى . (ومن المعروف أن ذلك العصر شهد نضوج النظم الفكرية الأوربية قلبا وقالبا ، واستقرار العلوم الطبيعية على يد « اســـــحق نيوتن » الانجليزى ووفرة الانتاج الأدبى على طريقة الحضـــارة الجديدة بل وبدايات التطلع الاستعمارى نظرا وعملا، وغير ذلك) . فاذا أتينا الى العصر المسمى بالقرن التاسع عشر الميلادى عندهم ، فاننا نجده عصر الاستقرار النســـبى والازدهار وقمة البلوغ ومجلى النضوج التام . ونرى من جانبنا أن ذلك القرن التاسع عشر الميلادى قد شهد ، ومنذ بداياته ، قمة الحضارة الغربية ، ونحن نضعها فى مجالى أربعة أو خمسة كبرى : استقرار « النظام » الســـياسى الأوربى بعد هزيمة نابليـــون عام ١٨١٤ م ، والثـــورة الصناعية ، وتفاعلات الثورة الفرنســـــية أفكارا وقيما وتنظيمات ، والفلسفة الهيجلية فكرا ، وجوته وبيتهوفن فنا . ولكن اذا كانت نقطة القمة هى أعلى نقاط تطور ما (أو حتى مكان ما) ، فانها ذاتها وبحكم التعريف الموضع الذى

يبدأ معه اتجاه النزول ، ويتضح هذا على نحو حاسم فى منحنى الخطوط البيانية على ماتستخدم في بعض العلوم من مثل علم الاقتصاد وعلم الاجتماع وعلم النفس وغيرها ، ففى منحنى الخط البيانى تتجاوز تماما نقطة القمة ونقطة بداية النزول • فليس عجبا ان نجد النظام الأوربى الجديد ، الناتج عن مؤتمر فيينا ١٨١٥ م ، يؤكد حقوق الملوك ، بينما توجه الحضـــارة الغــربية الجـــوهرى هو توجه بورجوازى ، وان نجد الثورة الصناعية يصاحبها على نحو صارخ وأد الكرامة الانسانية للعمال (كما نجد فى روايات تشارلز ديكنز خاصة)، بينما تدعى حضارة الغرب أنها تقدس الفردية وتحترم الانسان في مقابل الألوهية ، وأن نجد أن الثورة الفرنسية الكبرى ، ذات الشعار البرجوازى « حرية واخاء ومســـاواة » ، تلد ولادة طبيعيـــة نظام الحكم الدكتاتورى النابليونى ، وأن نجد الفلسفة الهيجلية يظهر ضدها على الفور صرخة اللاعقلية عند نبى « الوجودية» الدانمركى كيركجور ، وأن يقابل هذا بحالة شـــبيهة فى الفنون : فبعد « كلاسيكية » جوته وبيتهوفن تسود النزعة الرومانتيكية فى معظم الفنون ، وهى الأخرى نزعة لاعقلية، بينما العقل من مقدمات الحضارة الغربية ومن أهم رموزها • وليس أدل على وصـــول الحضـــارة الغربية فى القرن التاسع عشر الميلادى الى منتهى ازدهارها من انه عصر التمتع العظيم بنتائج سيطرتها الاستعمارية على كل مناطق

العالم المأهولة على التقريب ، وأنه ، من قبل هذا ، العصر الذى شهد أقصى توسع استعمارى لشتى دولها القادرة ٠

٣ ـ السمة العامة للأزمة ، وسواء كانت تلك الأزمة على مستوى الحضارة أو على مستوى المرض الانسانى، أو غير هذا وذاك ، هى حدة التوتر والتطرف ٠

(ب) علامات عامة بارزة للأزمة :

١ ـ نتحدث عن علامات أزمة الحضارة الغربية فى قسمين : الأول يختص بالعلامات العامة ، والثانى بعلامات الأزمة فى بعض الميادين الهامة ٠ ونبدأ هنا بالقسم الأول ٠

٢ ـ لعل من أهم العلامات العامة تحطم القوى الأوربية التقليدية صبيحة نهاية ما سماه الغرب « بالحرب العالمية الثانية » ٠ فقد ترشحت للقيادة السياسية والعسكرية والاقتصادية للحضارة الغربية قوى متعددة منذ عصر نهضتهم ، ومنها هولندا والبرتغال واسبانيا ، ولكن حركة الأحوال انتهت الى تركز تلك القيادة فى يدى انجلترا وفرنسا ، وهذا هو مايشهد به ، خلال القرن التاسع عشر الميلادى ، واقع السيطرة الاستعمارية العالمية من جهة ، ولعبة التوازنات الأوربية من جهة أخرى ٠ بعبارة أخرى : انتهى «النظام الأوربى» الى السيادة الانجليزية والفرنسية ٠ حتى جاءت الحرب « العالمية » الثانية ، وانهار هذا

النظام الى غير رجعة ، وتراجعت انجلترا وفرنسا الى دولتين من الدرجة الثانية . ان نظام الغرب لم يعد هو ما هو ، ، بل لقد تحطم التنظيم الغربى التقليدى ، وحل محله تنظيم جديد بعد ذلك الذى كان قد استقر لأجيال متعددة بل لمئات من السنين ان تكلمنا على وجه عام وأخذنا الميدان فى مجمله وعمومياته . لقد فقد الغرب اتزانه التقليدى ، ولم تعد الدنيا هى الدنيا .

٣ ـ وليس أدل على تضعضع قوة الغرب من أنه اذا كانت قوتا « المركز » ، فرنسا وانجلترا ، قد نزلتا عن عرشهما ، فان من ورثهما انما هما قوتان من قوى الأطراف البعيدة : الولايات المتحدة الأمريكية غربا والاتحاد السوفيتى (أى روسيا فى النهاية) شرقا ، وقوى الأطراف ليس لها ، بحكم واقع الحال ، نفس التجربة التاريخية التى لقوى المركز ، بل تكونان فى العادة « دخيلتين » و « ومبتدئتين » فى مجال القيادة ، فلا غرو ألا نتوقع القوة والحنكة والفاعلية التى شهد بها للقوتين المركزيتين التقليديتين . بعبارة أخرى : أصبحت قيادة الغرب فى أيدى « مبتدئين » ، وهذا هو ما صاحت به أصوات أوربية عديدة فى وجه ما سموه « بالأمريكى القبيح » غداة حربهم العالمية الثانية . وتشير سائر التطورات الى أن سيطرة القوتين الجديدتين على ميراث الهيمنة الأوربية التقليدى أبعد ما تكون عن الاحكام ، ولا نشير الا الى مثال فشل

أمريكا فى فيتنام وتحلل الامبراطورية الروسية المسماة بالاتحاد السوفيتى الذى يحدث تحت أعيننا هذه الأيام ٠ ان الغرب لم يعد السيد المطلق على نحو ما كان عليه فى القرن التاسع عشر الميلادى ٠

٤ ــ واذا تركنا القوى السياسية الدولية الى القوى الاجتماعية الداخلية ، وجدنا أن الطبقة البورجوازية ، التى استفادت وحدها من ثمار حضارتها الأوربية فى خلال القرن التاسع عشر الميلادى ، قد اضطرت ، فى خلال عصر القرن العشرين الميلادى وعلى امتداده ، وعلى نحو متزايد أقوى وأقوى ، الى التخلى عن تفردها بالسيطرة الداخلية وبالمنافع الى قوى جديدة كانت تعد ، أى هذه القوى ، منتمية الى أسفل درجات المجتمع الغربى ، ومنها العمال واليهود والسود ٠ ان السادة لم يعودوا هم السادة ٠

٥ ــ وقد كان من النتائج المباشرة التالية على الفور على نهاية حربهم الكبرى الثانية ظهور الدعوة الى «الوحدة الأوربية » ، وما أبعد هذا عن التوجه الأساسى السياسى لنموذج الدولة الأوربية منذ عصر نهضتهم،ألا وهو نموذج الدولة القومية الغيورة على سيادتها ٠ ونرى فى هذه الأيام أن موقف انجلترا المعاند لتلك « الوحدة الأوربية » ، انما هو التعبير المتسق عن النموذج التقليدى الأساسى للدولة فى الحضارة الأوربية ٠ لقد تغيرت الأيام ، وانهارت

النماذج وهى تأخذ فى التبدل الجوهرى من نقيض الى نقيض . ثم يقولون ان الحضارة الغربية لا تزال هى هى!

٦ ـ ومن أيسر علامات اندفاع المجتمعات الغربية الى مدارج الأزمة الحادة والاشراف على التحلل ، انتشار الروح العدوانية الجارفة وامتدادها الى شتى الميادين على التقريب ، ومن الحرب الى الفناء. ويمكن تتبع هذا المظهر فى ميدان انتشار الجريمة وتنظيمها ، وميدان الاقتصاد والصناعة وميدان الحروب ، وفى الفنون ، وليس عليك ألا تتبع خيط الروح العدوانية فى مجال واحد فقط ، ألا وهو الانتاج السينمائى الأمريكى . ان سيادة التوجه العدوانى مظهر مرضى ، وما أبعد النظرة الناعمة التى تظهر فى تصاوير عصر النهضة الأوربية ، والدالة على الأمن والطمأنينة والرضا والتطلع المتفائل ، عن النظرة الشرسة المهاجمة القلقة ، والتى تنم عن نكد الحياة الدائم، فى نظرات مشهورى الغرب اليوم ، من أميراتهم الى مغنيهم وممثليهم الى عمالهم .

٧ ـ إن هذه الروح العدوانية تنتهى الى العدوان على الذات نفسها ، ويمكن أن نفرد معلما قائما بذاته لتحلل الغرب ، وممثلا فى الاتجاه الجارف نحو الهروب من الواقع ، دلالة عدم الرضا والرفض ، والذى يتمثل فى ازدياد معدلات الانتحار ، وعلى الأخص فى الانتشار الهائل

لتعاطى المخدرات بأنواعها ، وحتى وصل ذلك الى أعلى أماكن السلطات السياسية والاقتصادية والثقافية وغيرها. ويصاحب هذا سيادة نغمات « الاغتراب » وروح التشاؤم والشعور بالعزلة والرغبة الشديدة فى خلع الجلد والتحول الى الآخر المغاير (راجع انتشار جماعات الدخول فى البوذية والاسلام وغيرهما من التوجهات اللاغربية) · ان هذا الهرب من الواقع يتناقض أعظم تناقض مع الاقبال على الواقع ، بل والهجوم عليه ، الذى كان يميز البورجوازى الغربى فى القرن التاسع عشر الميلادى ·

٨ ـ هذه بعض العلامات العامة البارزة الدالة على على تواجد الحضارة الغربية فى حالة أزمة حادة · ومن نافلة القول أننا لم نفعل شيئا ، فى النقاط السابقة ، غير وضع الأساسيات ، ولم نقدم الأمثلة التفصيلية ، ولم نشر الى الممهدات ، كما لم نشر الى ظواهر مقابلة فى مرحلة الانهيار فى حضارات أخرى خلال التاريخ · وهذا كله من اختصاص جهد آخر يستقصى المسائل بشأن انهيار الغرب ·

(جـ) علامات خاصة للأزمة فى بعض الميادين :

١ ـ ان جوهر الأزمة هو فقدان الاتزان وفقد السيطرة على عناصر الموقف وزيادة درجة التوتر والقلق والوجود على مفترق طرق ، حيث يهجر الطريق القديم التقليدى

ونصبح على مفتتح طريق و طرق لاندرى نتائج السير فيها ، لأن عناصر الخبرة التقليدية لاتستطيع أن تكون ذات نفع لنا بصدد الموقف الجديد • وسوف نرى مصداق ذلك كله فى السطور التالية التى تشير سريعا الى بعض علامات أزمة الغرب فى بعض الميادين البارزة ، مع المقارنة دائما بأوضاع الاستقرار والنضوج الكامل الذى شهده عصر القرن التاسع عشر الميلادى •

٢ ـ اذا نظرنا الى الميدان الاجتماعى أولا ، ومنذ حربهم الكبرى الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨ م ، وجدنا ان سمة الشقاق بوجه عام هى السمة الجوهرية المميزة لعلاقاتأهم القوى الاجتماعية ، ومن المفهوم أن هذا لايعنى أن يكون الشقاق ظاهرة دائمة تسود السطح فى كل الأوقات وعلى شتى الجبهات ، وانما يكفى أن تكون دورية الظهور بارزة فى أهم المجالات ، وان يكن ذلك على درجات شتى بحسب دواعى الأحوال وظروف كل مجال على حدة • فاذا نظرنا الى مجال علاقات العمل مثلا ، وجدنا الشقاق بارزا وحاضرا دوما على التقريب (ولكن بدرجات وعلى أشكال مختلفة بحسب البلاد ، فهو أقل درجة فى ألمانيا عموما وأشد فى فرنسا وايطاليا ويتخذ مسارب شبه سلمية فى أمريكا الشمالية بينما يختفى فى أوربا الشرقية حتى وقت قريب ، وهكذا) ، وكثيرا ما نرى « أصحاب الأعمال » (أى الرأسماليون) فى مواجهة تشبه الحرب مع نقابات العمال،

بل أحيانا ما تصارع النقابات العمالية الحكومة نفسها ، وقد رأينا منذ سنين قليلة اضرابا عماليا يمتد لشهور فى بريطـــانيا ويكلف الخزينة البريطانية آلاف المليارات من جنيهاتهم • وهناك شقاق جوهرى بين الأجيال أيضا : بين الشباب والآباء وسلطات المجتمع ، وليس ببعيـد « ثورة الشباب » فى النصف الثانى من ستينات القرن العشرين الميلادى • وهناك كذلك خلاف عميق ، وان لم يظهر على السطح دوما ولم يجد من يحسن التعبير عنه ، بين أصحاب مصانع الانتاج وجمهور المستهلكين لانتاجهم ، وهو جانب من جوانب ما سماه الغرب منذ بضع عقود بظاهرة «المجتمع الاستهلاكى»، التى تؤدى الى استغلال الانسان ليكون مجرد مستهلك للمنتجات التى تقدمها الطبقة الرأسمالية •

هذه ثلاثة مجالات وحســب للشقاق الداخلى العظيم فى باطن كيان الحضارة الغربية ، واذا قارنا أوضاع نفس المجالات فى خلال القرن التاسع عشر الميلادى لم نجد هذا الشقاق ، بل استقرارا وسيطرة للبرجوازية وللآباء على عناصر الموقف • ومن الواضح اننا نعتبر الحضارة الغربية حضارة الطبقة البورجوازية ، فالوضع « الصحى » لتلك الحضارة يعنى سيطرة تلك الطبقة فى شتى المجالات ، والعكس بالعكس •

٣ ــ وفى ميدان العلم والتكنولوجيا ، مقارنا بما كان عليه الحال فى القرن التاسع عشر الميلادى ، نستطيع أن

نقول ان الحضارة الغربية بعيدة عن السيطرة على أمواج الاكتشافات والاختراعات الجديدة ، بحيث يمكن أن نتحدث عن « فقد الاتزان التقليدى » فى هذا المجال أيضا · صحيح أن البعض قد يرى هذه الخصوبة علامة ما يسمونه « بالتقدم » ، وبالتالى انها علامة حياة وقوة وليس العكس، ونحن لا ننكر أنها قد توحى بهذه المعانى ، ولكننا نلاحظ أن القدرة التكنولوجية للحضارات بوجه عام تكون أظهربصفة عامة فى مراحل أزماتها التالية على بلوغها النضج ، ولكن ليس هنا مكان اثبات هذه القضية العامة · ان ما نريد الاشارة اليه هو زيادة الايقاع فى حركة سيل الاكتشافات والمخترعات ، بحيث انه أصبح من الصعب على الحضارة الغربية السيطرة على عناصر هذا الموقف · واذا كان صحيحا ما يقوله البعض من أن الغرب يشهد « ثورات » صغيرة فى ميادين العلم وميادين التكنولوجيا كل بضع سنين قليلة ، فان هذا ليس دليل صحة على الفور ، لأنه من المهم السيطرة على المعارف والمخترعات السابقة ، وهذا يتطلب وقتا ذا حد أدنى من الامتداد ، قبل أن تهبط عليك تلك الجديدة ·

٤ ـ أما اقتصاديا ، فان معدلات البطالة زادت زيادة فاحشة ، وخاصة فى العقود الأخيرة ، بل أصبحت عنصرا ضروريا من عناصر البناء الاقتصادى الغربى ، والبطالة تعنى وضع شريحة عريضة من أعضاء المجتمع موضع

« الاستلاب » · وقد سبق أن أشرنا الى الصراع العمالى والى استغلال مجتمع المستهلكين من قبل الشركات المنتجة الكبرى ، ونضيف استخدام الدعاية كأداة « لا انسانية » فى استثارة حاجات مصطنعة لدى الجمهور، ولصالح المنتجين الرأسماليين وحدهم · ان الوضع الاقتصادى للفرد العادى الغربى يعنى أنه أصبح مجرد « أداة » فى يد أصحاب المشروع الرأسمالى ، بينما الحضارة الغربية كانت تدعى أنها تجعل الكرامة الانسانية من محاور اهتمامها المركزية ·

٥ ـ ويرتبط بهذا كله ارتباطا مباشرا ، انتشار النزعة الآلية على نحو يهدد الكرامة الانسانية ، ودلالته فيما يخص موضوعنا أنه يتناقض بالكلية مع دعوى الحضارة الغربية منذ عصر نهضتها بأنها حضارة « انسانية » · ان انتشار استخدام الآلة ، وسرعته تزداد فى متوالية شبه هندسية ، يهدد القيمة الشخصية التى للانسان ويؤدى فى النهاية الى ضمور القدرة على الحرية ، تلك القيمة المركزية بين قيم الحضارة الغربية · لقد ظهرت الآلات الغربية الرئيسية منذ القرن التاسع عشر الميلادى ، ولكنها كانت تحت سيطرة التوجه الانسانى ، وما يحدث الآن ، وبازدياد ، هو العكس· لقد فقد ، وربما الى الأبد ، الاتزان التقليدى الذى كان يميز عصر ازدهار الحضارة الغربية ، وعصر فقد الاتزان هو عصر الأزمات وتمهيد للتدهور والتحلل الداخلى رغم

ماقد يبدو على غير ذلك على السطح • مرة أخرى يتحول الانسان من مركز للقيم الى مجرد أداة للثروة الرأسمالية • لقد خانت الحضارة الغربية مبادئها •

٦ ــ ومن مظاهر أزمة الحضارة الغربية (وخاصة من حيث فقد التوازن وفقد السيطرة التقليدية) ظهور قوى سياسية جديدة على المسرح الداخلى ، ومن ذلك احزاب الاهتمام بالبيئة أو ما سماه الأوربيون بأحزاب « الخضر »، نسبة الى اخضــرار الطبيعة (فى مواجهة النزعة الآلية وتحطيم البيئة الطبيعية لصالح رأس المال) ، وزيادة مقاومة الأمم المستغلة على المسرح الدولى لاســـتغلال السيطرة الغربية لها ، فرغم أن ماسمى أخيرا « بالعالم الثالث » لايزال تحت سيطرة الغرب ، الا أن مقاومته للســـيادة الغربية مقاسة الى أوضاع القرن التاسع الميلادى أعظم بكثير •

٧ ــ واذا أتينا الى ميدان الفنون ، وجدنا انقلابا كاملا على شتى التوجهات « الكلاسيكية » للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين ، بل وسيادة مظاهر روح العدوان فى الحد الأعلى وروح القلق والتوتر الشديد فى الحـــد الأدنى • ولهذه الأزمة العميقة مظاهر فى شـــتى الفنون الغربية ، من أدب الى فن تشكيلى الى موسيقى الى غيرها ، ولا يسمح هذا المجال بالتمثيل مجرد تمثيل لها جميعا ، لأن الموضوع يتطلب الافاضة بطبيعته •

٨ ـ أخيرا وليس آخرا ، فان تطور الفلسفة الغربية فى القرن العشرين الميلادى يدل على نفس الدلالة ، ويكفى أن نشير الى أن المفاهيم المركزية للفلسفة « الوجودية » ، التى شغلت عقول كثير من الغربيين ثلاثة عقود أو أكثر ، ما هى الا العزلة والفشل والموت وما شابه • أن تفاؤل الفلسفات الوضعية السائدة فى خلال القرن التاسع عشر الميلادى لم يعد له وجود ، ولا توجد كذلك فلسفة شاملة كتلك التى كنا نلاقيها فى العصر الغربى السابق على بداية الأزمة الكبرى •

خامسا : أسباب الأزمة وتأصيلها :

١ ـ نقصد « بالتأصيل » ، تأصيل الأزمة ، شيئين : أولا ، محاولة رد الأسباب الى عدد محدود من المبادىء العامة ، وثانيا : محاولة تقديم صياغة ذات طابع منطقى للتناقض القائم فى قلب تنظيم الحضارة الغربية والذى أدى بالضرورة الى فقد التوازن الأساسى بين العناصر الأصلية المكونة لتنظيم الغــــرب ككيان تاريخى • ونموذج التوازن الأساسى هو أحوال الحضـــــارة الغربية فى مجتمعاتها المتقدمة (وبالتالى النموذجية والممثلة لها) على نحو ما انتهت اليه فى القرن التاسع عشر الميلادى ، الذى هو عصر النضوج الكامل والقمة والازدهار •

٢ ـ ولكننا نبدأ بالاشارة الى ما نعتبره أسباب الأزمة

الحالية للغرب (والممتدة منذ عام ١٩١٤ م · والى مستقبل ليس من السهل تحديد مداه لأننا بازاء ظواهر انسانية) ·

٣ ـ وأول هذه الأسباب وأهمها وأبسطها (وأبسط الأسباب أعظمها) أن الحضارة الغربية وصلت الى قمة نموها فى القرن التاسع عشر الميلادى ، على نحو ما بينا فى قسم سابق ، ومعنى ، « القمة » هنا هو تحقق ما كانت تبتغيه الحضارة الغربية منذ قيامها · ولعل « قدس الأقداس » فى بناء الحضارة الغربية هو مبدأ « الفردية » ، أى القول بأن الفرد هو مركز التكوين الاجتماعى وأنه قيمة بذاته ، بل أنه قيمة مطلقة · وبالفعل فان الحضارة الغربية هى حضارة الفرد البرجوازى الطموح المنتج من أجل تحصيل الثروة والتمتع بالحياة · هذا الفرد البرجوازى وصل الى الى قمة ازدهاره فى القرن التاسع عشر الميلادى ، وبهذا يكون التكوين الحضارى للغرب قد « أكمل » وظيفته فى خدمة الطبقة الوسطى ، وريثة النبلاء والملوك والكنيسة جميعا ، وهى الطبقة صاحبة المشروع الاقتصادى الغربى النموذجى ، أى المشروع الرأسمالى · وبعد هذا « الكمال » تبدأ عوامل التناحر الداخلى ، وعلى شتى الجبهــات ، سياسيا وطبقيا واقتصاديا وحربيا وثقافيا الى غير ذلك· وقد سبق أن أشرنا الى مفهوم « منحنى الخط البيانى » ، ومن الطبيعى أن يبدأ المنحنى فى الهبوط فور وصوله الى أعلى درجة فى ارتفاعه · ان الهبوط ضرورة فى كل نمو

انسانى وحيوى ، وهو ما نلاحظه فى شتى جوانب الحياة ، فى نمو النبات والحيوان والانسان ، فى منحنيات العمل والجهد عند الانسان ، بل وفى عمل الآلة ذاتها ، وهى بمعنى ما نتاج انســـانى · ومن المنطقى أن نطبق نفس المفهوم وان نتوقع نفس النتائج فى حالة الحضارة ، وهى كيـان ذو سمة انسانية بالضرورة ، ثم تؤيدنا ظـواهر التــاريخ · والا فليدلنا معارض على حضارة خلدت فى التاريخ !

٤ ـ لم تستطع الحضـــارة الغربية فى خلال القرن العشرين الميلادى ، وهو القرن الخامس من سنى نموها على التقريب ، لم تستطع استعادة التوازن التقليدى القديم فى عصرها السابق ، بسبب ظهور عناصر جديدة فى الموقف غير متوافقة أو منسجمة مع عناصره السابقة · أما فيما يخص أهم القوى السابقة التقليدية فى موقف الحضارة الغربية ، فقد كانت البورجوازية ، وهى التى دخلت فى صراع مع قوى النبلاء والملوك والكنيسة فى داخل الحضارة الغربية ، ومع شعوب العالم الأخرى جميعا من خارجها · كانت البورجوازية هى القوة الكبرى المسيطرة فى الحضارة الغربية ، ولكن هاهى تظهر أمامها قوة جـــديدة كانت منسحقة من قبل ، ألا وهى قوة البرولتاريا ، أو طبقة العمال، فى مواجهة طبقة أصحاب الأموال (وليس من المصادفات أن تقوم الثورة الاشتراكية فى روسيا بعد ثلاث ســـنوات

وحسب من قيام الحرب الكبرى الأولى فى أوربا عام ١٩١٤، وهى سـنة البداية التاريخية المتعينة للأزمة الغربية فى رأينا) ، ثم أخذت فى الأعوام الخمسين الأخيرة تظهر قوة ثالثة هى ماسمى باسم قوة « أصحاب الياقات البيضاء » ، أى تجمع الموظفين والفنيين ذوى التخصـصات العالية تكنولوجيا والمديرين ، وأخيرا ظهرت قوى « العالم الثالث » خارجيا ، وهى قوى نجحت أحيانا فى اثبات قدرتها على اعاقة احكام الغرب لسيطرته الاستعمارية · وربما كان من عناصر الموقف الجديد للحضارة الغربية فى عصـر أزمتها مايمكن أن نسميه « بمنطق الآلية » ، حيث أصبح لاستخدام الآلة بتوسع فى الصناعة وفى الحياة اليومية على السواء نتائج ومستلزمات تعدت بكثير قدرة وارادة أصحاب المشروع الرأسمالى على السـيطرة عليها · ان الفكرة هنا تقرب من تصور « الشياطين التى تنطلق من القمقم » ·

وبايجاز نقول : ان السبب الثانى للأزمة الغربية هو عدم قدرة الحضارة الغربية (ممثلة فى قواها التقليدية المركزية) على استعادة التوازن النموذجى التقليدى ·

٥ ـ السبب الثالث : انقـلاب الحضـارة الغربية على نفسهـا بنفس مبادئهـا ، أى التنكـر للذات والانقسـام على الذات · ويمكـن أن نلخص أهـم خصـائص الحضـارة الغربية فى المبادىء والاتجاهات

الكبرى التالية : الفردية والعقلانية والنزعةالكميةوالآلية.
ويمكن رد النزعة الكمية والتوجه الآلى ، على نحو أو آخر، الى مبدأ العقلانية ، فيكون لدينا أساسان تكوينيان لبناء الحضارة الغربية هما : الفردية والعقلانية، وان كان يمكن رد المبدأ العقلانى نفسه ، بوجه ما ، الى مبدأ الفردية ، فيصبح هذا المبدأ الأخير هو العمود المؤسس لشتى توجهات الحضارات الغربية في سائر الميادين . ولعل أهمية المبدأ الفردى ، وامكان رد العقلانية اليه كذلك ، تظهر فى هذه العبارة التأسيسية فى التكوين الفكرى لحضارة الغرب : « أنا أفكر اذن أنا موجود » ، وهى ما يطلق عليه « الكوجيتو » عند ديكارت . فى هذه العبارة القصيرة الخصبة هناك « أنا » ، وهو مايدل على مبدأ الفردية ، وهناك « أفكر » ، وهو مايدل على مبدأ العقلانية ، وتفكيرى أساس أو مؤسس لسائر الوجود ، من وجود الاله الى وجود الأشياء (عند ديكارت الفرنسى بطبيعة الحال ، ت ١٦٥٠ م) . فيمكن أن تقول ان المبدأ الأكبر فى الحضارة الغربية هو الفردية .

ونقول ، أولا ، بايجاز قبل التفصيل ، ان الحضارة الغربية ، فى خلال تطورها الطويل ، قد خانت هذا المبدأ وهذه القيمة معا ، أى الفردية . فنرى أن النظام الاقتصادى الغربى قد تحول الى نظام لاستغلال البشر الآخرين ، بمن فيهم أفراد الحضارة الغربية أنفسهم ، فضلا عن استغلال

أفراد الأمم والثقافات المغايرة ، وهو أحد جوانب ظاهرة « الاغتراب » أو « الاستلاب » التى بدأ التنبيه اليها منذ أواسط القرن التاسع عشر الميلادى وأصبحت واقعا يعيشه سائر الغربيون على نحو أو آخر .

وجوهـــر الاغتراب هو تحول الانســـان الى أداة أو وسيلة ، أو تحوله على أحسن الظروف الى مستهلك لمنتجات أصحاب رأس المال ، وهو مايدل على معنى الأداة من جانب ما . وذلك كله فى مقابل كون الانسان قيمة فى ذاته . ان الذات الغربية تتنكر لنفسها وتنقض على مبادئها ويحدث الانقسام ، وهذا معنى التناقض الداخلى الذى أصبحت تعيشه ، وتعيه ، الحضـــارة الغربية ، التناقض ما بين مبادئها فى منطلقها والنتائج الفعلية التى وصلت اليها فى خلال تطورها . ان الانقسام على الذات هو قمة الأزمة وهو أكبر علاماتها فى نفس الوقت .

ونأتى الآن الى بعض تفصيل لما أوجزناه فى السطور السابقة ، لنفهم كيف انتهت الحضارة الغربية بالاعتداء على أهم مبادئها ، ألا وهو مبدأ الفردية ، بما يثير شعور مواطن بلادها ، على اختلاف فى الدرجة مع تنوع الظروف والأحوال ، بأنه فى أزمة ساحقة(١) .

---

(١) نقتطف التحليل التالى من دراسة لنا أعددناها من عام ١٩٧٧ م بعنوان : « أزمتهم ومشكلتنا ، أو ما يخصهـــم وما يخصنا » ، ولم تنشر .

لقد قامت الحضارة الغربية ، منذ عصر « نهضتها » ، على أســـاس انها تتميز عن غيرها ، وعلى الأخص عن سابقتها الحضارة المسيحية ، بأن محور اهتمامها الأول انما هو الفرد ، ويمكن بالفعل ، كما أشرنا ، أن نفســـر منجزاتها الجوهرية ابتداء من هذا المفهـــوم المركزى • فالتحرر من سلطة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية هو تحرر العقل ، أى عقل الفرد ، من ربقة التقليد • وظهور الممالك الجديدة فى أوربا الغربية واستقلالها هو انتصار للملوك الأفراد ، ثم لأممهم بطريق غير مباشر وكأنها أفراد ، ضد سلطان الامبراطوريات الجامعة الســـابقة • وظهور قوة التجار ورجال المال ، ثم قوة أصحاب المصانع من بعدهم ومنهم ، هذا كله هو انتصار للفرد الذكى المجتهد ضـــد مجد النبالة التقليدية التى تكتفى بهالة « الأصل » والحسب، ولا تسعى ولا تكدح لجمع المال وتكثيره • ويبدو لنا أن الفترة الممتدة من عصر النهضة الأوربية الى عصر الثورة الفرنسية هى فترة نشأة وتكوين وتحضير لظهور الكيان الاجتماعى الذى سيجسد انتصـــار الفرد ، عقلا وارادة وسلطة سياسية وسلطة اقتصادية (بل وكذلك سلطة دينية، على ما يظهر من توجهات المذهب البروتستانتى الجديد ، والممثل أكثر من غيره لجوهر توجهات الحضارة الغربية »، أقصد بذلك الطبقة الوســطى : أو مايســـمى فى الغرب بالبورجوازية • هذه الطبقة هى صانعة الثورة الفرنسية ، وهى المستفيدة منها • وسوف يشهد القرن التاسع عشر

الميلادى ، فى أوربا الغربية على الأخص ، قمة ازدهار هذه الطبقة ، سواء على مستوى السياسة الداخلية ، فهى الحاكمة أو المتحكمة على الأقل ، أو على مستوى السياسة الخـــارجية ، مع وصـــول حركة الاستعمار الى أقصى قممه ·

ولكن ما أن تصل الطبقة البرجوازية الى قمة نجاحها حتى تأخذ فى التناحر فيما بينها على مســتوى الدول القومية ، وذلك بعد تعاظم قوتها الاقتصـــادية على اثر استقرار التنظيم الصناعى وانتشار استخدام الآلة · فهاهى تتناحر فيما بينها على الأسواق وعلى المستعمرات ، وكان لابد من تصفية الحسابات ، فكانت الحرب الأوربية الكبرى الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) ، وكان انهيار التوازن بشكل حاسم ، وكان بدء تفجر الأزمة بشكل ظاهر ·

قلنا ان قلب الحضارة الغربية هو مفهوم « الفرد » ، ويأتى انهيار التوازن من أن تطور تلك الحضـــارة خلال القرن التاسع عشر الميلادى لم يكن فى الواقع الا اعتداء متزايد القسوة على قيمة « الفرد » تلك : فبعد وصـــول الفرد البرجوازى الى السلطة (الاقتصادية فالسياسية)، وتحقيقه لما كان يسعى اليه منذ ظهور الحضارة الجديدة فى عصر النهضة الأوربية ، ألا وهو « الحرية » (وهى القيمة الشعورية والســلوكية الناتجة مباشــرة عن القيمة الوجودية الأساسية التى هى قيمة « الفرد » ، لأن «سلطان»

الفرد لا يظهر الا من خلال الحرية) ، وجد أن عليه ألا يجعل طبقات أخرى تصل الى السلطة لتشـــاركه اياها ، وأن « الحرية » انما هى حريته وحده ، ورأى الفرد البرجوازى الغربى كذلك أن من حقه أن يزيد من قوته الاقتصادية بأى ثمن ، وليس لأحد أن يعارض توسعه (« دعه يعمل ، دعه يمر ») ، وبرر ذلك بأن هذه المعارضة ستكون معارضة « التقدم » (لاحظ تكوين الجهاز الايديولوجى المناســـب بالتدريج) • ولا نستطيع أن نفصل فى تلك الحركة هنا • ولكن النتيجة هاهى : ازداد ايقاع الانتاج الصناعى ، وكان المتحمل لآثاره هو العامل المسحوق فى المنجم والمصنع فى المحل الأول ، كما اتســـعت دائرة اســـتخدام الآلة ، وكان المتحمـــل لآثار ذلك أسر المتبطلين عن العمـــل • وقامت الحروب بين الدول الأوربية ، أى بين طبقاتهـــا الحاكمة وكلها من البورجوازية أو تمثـل مصالحهـــا ، وكان المتحمل لآثار الحروب ، فى المعركة وفى الخنـادق وفى المدن حيث الضائقة الاقتصـــادية ، هم مجموعات المجتمع الأخرى • وجد الفكر الأوربى ، منذ طلائع التوجه الاشتراكى وعند غيره كذلك ، أن قيمة « الفردية » المزعومة، انما هى قيمة لا ينتفع بها الا البعض ، وأن الطبقـــة البرجوازية بسياساتها الاقتصـــادية انما ترتد على قيمة الفردية تلك تنهش فيها وتضحى بها على مذبح « حريتها » هى ، والتى أصبحت ، « واقعا » ، حريتها فى « استغلال »

الأفراد الآخرين (بالمعنى الحرفى : « أخذ الغلة من ») ، حتى لو كانوا هم أنفسهم أوربيين ٠

وهكذا ظهر أول تفسخ كبير فى نسيج الحضارة الأوربية : الصراع بين صاحب العمل والعامل ، أى بين صاحب رأس المال وصاحب القدرة على العمل ، وكان ظهور الحركات الاشتراكية بأنواعها ، ثم كان قيام تلك الدولة التى اعتبرتها الدول الغربية الأخرى ، وعن حق من وجهة نظرها ، خطرا عليها يهدد حياتها ذاتها ، ألا وهى دولة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية (١٩١٧ م) ٠

وقد خلفت الحرب الأوربية الكبرى الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨ م) من الدمار ماروع الضمائر ، وأولد شعورا عاما حادا بأن الحضارة الأوربية فى أزمة ساحقة ، حتى بين بعض مفكرى الطبقة البرجوازية نفسها ٠ ولم تزد التطورات التالية تلك الأزمة الا حدة وقوة واتساعا ، لأن نمو الصناعة سيوجه هو الآخر ضربة قوية الى مفهوم « الفردية » ٠ ذلك أن قولنا ان الحضارة الغربية تضع « الفرد » فى مركز اهتمامها يعنى ضمن ما يعنى انها ترى أن « كرامة » الفرد هى « قيمة » مطلقة ،وقد رأينا من قبل تحطم هذه القيمة من جهة ظروف العمل ، ولكن هاهى تتحطم مرة ثانية ، وربما على نحو أقوى وأقوى ، مع

انتشار نوع الحياة الجديد الذى يعتمد على الآلة أو يريد أن يعتمد عليها ، فى كل أمر ٠

لقد غزت الآلة كل ميدان أو يكاد ، ويحدث ذلك بدعوى تحقيق قدر أكبر من الفاعلية والدقة والسهولة ، وعلى الأخص من أجل زيادة الانتاج وتنويعه وتخصيصه ٠ والواضح الآن أنه رغم كل ماقد يبدو من مزايا يستفيد بها « المستهلك » (وهذه كلمة هامة من كلمات العصر) الا أن المنتفع الأول انما هو المنتج ، أى صاحب الصناعة الآلية ، وليس العامل والمستهلك معا الا أدوات أو آلات بالمعنى الحرفى البعيد فى خدمة مصالح صاحب الصناعة ٠ والحق أن من يقول « الآلة » اليوم يقصد بها فى الواقع ما استغنى عن الانسان ، بعبارة أخرى فان الآلة تعنى غياب الانسان، وهى ، فى أحيان تزداد كثرة شيئا فشيئا ، تتجه الى أن تكون مايعارض الانسان ، أى ضد الانسان ٠ ان الآلة بسبيلها الى أن تصبح الآن فى الغرب رمزا للقهر وتجسيدا لقيمة الكم (وهذه قيمة أخرى لا تقل أهمية عن قيمة « الفرد » فى الحضارة الغربية ولكنا لم نتعرض لها هنا) ٠ انها المصير الذى ينتظر الانسان : فناهيك عن بدايات اختراع « الانسان الآلى » واستخدامه بالفعل فى ميادين شتى ، فان الانسان الحى نفسه يجد حياته وقد تحولت فى المصنع أو المكتب الى حياة منظمة مؤقتة يختفى فيها عنصر « المبادرة » والطابع الشخصى ٠ حتى أوقات الفراغ أصبحت « صناعة » ، وكل شىء فى العطلات الصيفية فى

الجبل أو على البحر أصبح « منظما مرتبا » (كما تشير الى هذا أغنية فرنسية لمغن معروف) ، وتقوم بهذا مصانع جديدة تتخذ اسم « نوادى أوقات الفراغ » ، ولكن يديرها نفس رجال البنوك الذين يمولون مصانع الحديد والمضاربات فى سوق الأوراق المالية وغير ذلك من « النشاطات » ·
حتى الحب تدخل فى ساحته الآلة ، ويتجه الى أن يكون آليــا بالمعنى العميق لهــذا التعبير ، أى ما يتــوفر فيــه عنصر « الانتـــاج على نموذج متكــرر » (ما يسمى series و série بالانجليزية والفرنسية على التــوالى) ، وبالتـــالى عنصـر « التوحيــد » أو « التاطبق » (Uniformity ، Uniformité) ·
وللقارىء أن يتذكر هنا التجارب التى تجرى حول «انتاج» أطفال بدون الحاجة الى ذكر وأنثى من دم ولحم ، ولكن لا أجد أشد دلالة على المعنى المقصود من فيلم تليفزيونى رأيته حوالى عام ١٩٧٠ م · فى التليفزيون الالمانى (المانيا الغربية) ، ويعرض للحياة الخاصة لأحد كبار موظفى الشركات ، فنفس الحركات يفعلها فى كل مرة يستقبل فيها صديقته : يدخل شقة ، يضىء الأنوار ، يجلس على نفس الكرسى ، يخلع حذاءه ، يضعه فى مكانه ، يخلع ملابسه قطعة فقطعة ، وفى كل مرة يعتنى بثنيها الثنية الملائمة ثم يقوم الى صاحبته فى الفراش ، ثم يقوم عنها ، ويعود الى نفس الأفعال السابقة ، ولكن معكوسة الترتيب ، كل ذلك يجرى فى صمت تام وفى جدية وصرامة · لقد أصبح

الفعل الجنسى ، وهو فى النهاية أعلى أفعال التواد بين البشر ، أصبح فعلا « آليا » ، وأصبح الانسان فيه كالعامل الذى يقف أمام الآلة ويكتفى بالاستجابة لحركاتها ، وهى دوما نفس الاستجابة ، لأن الآلة لا تغير من حركاتها ·

هكذا اذن تتحول الآلة ضد الانسان ، ويتجه الانسان الغربى الى أن يكون هو نفسه كالآلة · وهكذا أيضا تتجه الحضارة الغربية ضد ذاتها، لتضرب أحد مبادئها الأساسية المتضمنة فى قيمة « الفرد » ، ألا وهى كرامة الانسان · وربما كان أعظم القطاعات احساسا باهدار الكرامة هم العمال فى المصانع الكبيرة التى تستخدم مايسمى « بأحدث أدوات الانتاج » : فأول وأهم ما يشكو منه العامل الغربى هو أن العمل قد تفتت الى درجـة لا تتصور ، بحيث ان العامل أصبح يقوم فى تلك المصانع بنفس الحركة الواحدة طوال يوم عمله ، فاذا كان مثلا فى أحد مصانع انتاج السيارات فان له عملا محددا لا يتعداه ، وليكن مثلا الدفع بمسمار فى فتحة ما ليقوم زميله التالى بالدق عليه وهكذا، حتى تخرج السيارات واحدة بعد الأخرى فى نهاية المطاف، وقد مرت على مئات العمال كل منهم يقوم بعمـل واحد وواحد فقط طوال اليوم · ومن هنا ظهرت كثرة الشكوى من الانهيار العصبى ومن الكآبة وغير ذلك ، حتى ان العامل

لا يخرج من عمله الا ليرتاح منه وليستعد له فى يومه التالى ، وهكذا تتلخص حياة العامل كما عبر عنها بعض الطلبة فى أحداث ١٩٦٨ الشهيرة فى فرنسا : « العمل فالمترو فالنوم » ، وهكذا دواليك
. (Boulot, Metro, Dodo)

فاذا أنت أضفت الى هذا كله مشكلات التلوث فى البيئة ، وما يسمى « بالمجتمع الاستهلاكى » ، واحاطة حياة الناس بنظام محكم رهيب من الاعلانات بما لايدع لأحد حياة خاصة شخصية بالمعنى الحق ، اتضح لك فى سهولة ان تطور الحضارة الغربية فى أشكالها الأخيرة انما هو مضاد للانسان ، وبعبارة أخرى ضد المبادىء التى انطلقت منها الحضارة الغربية ، ومن هنا كان الانقسام على الذات بل رفض الذات الذى يميز أزمة الانسان الغربى منذ عقود وحتى اليوم : فهو يتعلم فى المدرسة وفى كتب عظام ممثلى الحضارة الغربية أن الفرد هو أغلى قيمة فى الحياة ، ولكن هاهو يداس على الفرد من كل ناحية · ان هدف الحضارة الغربية يصبح غير ممكن التحقق اللهم الا لفئة ضئيلة جدا ، أما الباقون فان دونهم وتحقيق حرية الفرد (ممثلا فيهم) ، وتحقق كرامته ، صعاب وصعاب تجثم على صدورهم وهى فى طريقهم كالجبال ، لأنها صعاب نابعة من محض طبيعة النظام الاجتماعى الذى استقر عليه

الغـــرب ، وماهى موجزة فى كلمتين : مادام الفرد هو الأساس فان التجارة حرة ، ولكى تزدهر التجارة تظهر الصناعة ، ولكى تتقدم الصناعة وتتوسع لابد من احلال الآلة تدريجيا محل الانسان مع توسيع دائرة المستهلكين واستثارة شهواتهم اصطناعيا ، كما أن ظهور الصـناعة وتقدمها يؤدى بالضـــرورة الى أن يتحمل أفراد آخرون نتائج هذا ، فظهر استغلال الحاجة الى العمل ، وظهرت سيطرة الآلة تدريجيا على شتى جوانب الحياة ، وفى كلتا الحالتين تصبح قيمة « الفرد » وكرامته مجرد دخان فى الهواء • واذا كان المتضررون فى الحالة الأولى هم طبقة العمال بصفة خاصة فان الضحايا فى الحالة الثانية انما هم المجتمع الغربى باسره ، وهو أمر على جانب عظيم من الأهمية ويدل على مدى اتساع دائرة الأزمة • لقد فشلت الحضارة الغربية فى تحقيق هدفها الأكبر لكل ابنائها • فكان لابد من الأزمة ، وقد بدأت •

سادسا : خاتمة :

ان ما تجمعه الصفحات السابقة ليس الا اشـــارات سريعة وغير مفصـــلة ، ولكنها جوهرية ودالة بذاتها ، ونرجو أن ينتهى القارىء معها الى أن الحضارة الغربية فى أزمة بالفعل ، وان هذه الأزمة أزمة حياة وموت ، او هى دليل دخول حضارة الغرب الى مرحلة الشـــيخوخة

الممهدة للتحلل والانهيار · ولكن الأهم من ذلك ، هو ان تكون تلك الصفحات دافعا الى التفكير فيما هو أهم : فأين نحن من هذا كله ؟ وما مستقبلنا ؟ وما واجباتنا الحقيقية ؟ وماهى شكل الحضارة الجديدة التى نريدها لأنفسنا ثم لبنى البشر جميعا من بعد ؟ هذه أسئلة للفلســـفة (أو « الأصوليات ») الجديدة من غير شك ·

اعادة اكتشاف الثقافة اليونانية في الوعى المصرى الحديث

اولا : تحديد الموضوع واهميته واطره وبعض العموميات:

كان غرضى الأصلى أن اتحدث عن الخطوات الفعلية التى اطرح فيها الوعى المصرى نسيانه للظاهرة اليونانية ، ثم أخذ ينشغل بها شيئا فشيئا وعلى نحو وآخر ، بادئا مما كان قد تبقى فى الذاكرة الاسلامية على مشارف العصر الحديث ، ان خيرا وان سوءا ، عن اليونان القدماء ، ثم ناظرا فى الحملة الفرنسية وما أتت به ، ثم منتقلا الى رفاعة العظيم فيما الف وفيما ترجم على السواء ، ثم الى مدرسته الكبرى فى الترجمة ، ثم الى ازدهار ما اسميه بعصر الصحوة المصرية ما بين ١٨٧٨ و ١٨٨٢ ، ورجالها

العظام ثم الى الشيخ محمد عبده ومدرسته لأقف ، هكذا كان القصد والمشروع ، عند أحمد لطفى السيد وعصره ، حيث يبدأ بعده عصر الجامعة المصرية بعد الجامعة الأهلية، وليشرف على الموقف سلطان رجل عظيم هو طه حسين ٠ وأما ان هناك مادة مناسبة ، فهو أمر لاشك فيه ، وأما أن هناك أهمية ومناسبة للأمر ، فهو مما تدعو اليه الحاجة فى اطار الدراسات التأسيسية لتطور الفكر المصرى الحديث ولمستقبل الثقافة العربية ككل ٠ ولكن مثل هذا البحث كان يقتضى متابعة دقيقة لنصوص كثيرة فى مكتبات شتى ، ولم يسعف الوقت ، ولا مكنت الشواغل ، أن أفى الموضوع حقه على النحو الذى أريد ، ولذلك تحولت من العرض التاريخى الى مقال الرأى والاقتراح المنهجى ، حيث الموضوع نعالجه كل حين وآخر ونتفكر فيه كل يوم على التقريب ، وهكذا خرج هذا البحث ثمرة تفكير قديم متجدد ٠

وأحب أن أنبه منذ البداية الى أن أهمية الموضوع تتعدى بكثير الاهتمامات التاريخية ، وتتعدى الاهتمام بالحضارة اليونانية ذاتها ، فهو عندنا ليس أقل من مجال تحضيرى لتحديد نهائى لطبيعة علاقتنا مع الحضارة الغربية ، وهذا ذاته جزء من مسألة أخطر وأخطر ، منطوقها : كيف نريد لمستقبلنا أن يكون ؟

والأطر التى يتحرك فى داخلها موضوعنا أطر عديدة، متنوعة ، ومتداخلة • ولعل اهمها هو هذا الاطار الذى اشارت اليه الكلمات السابقة على التو : ماذا نريد لمستقبلنا أن يكون ؟ ذلك أن تحديد موقف بازاء الحضارة اليونانية ومنجزاتها يتضمن بالضرورة تحديداً للوجهة التى نريد أن يتجه اليها مستقلبنا : فاما أن نعتبرها ، أى تلك الحضارة، ضرورة وتراثا ونموذجا وهاديا ، على نحو ما تفعـــل الحضارة الغربية ، أو تظن أنها تفعل ، واما أن نسقطه تماما من حسابنا ، كما أرادت التيـــارات المتأخــرة فى الحضارة الاسلامية وانتصرت ارادتها ، واما أن نهتم به على نحو معين سنحدده فى نهاية هذه الدراسة ، لكى تنفتح امامنا أبواب الابداع الحقة •

والبديل الأول من هذه البدائل الثلاثة ، والذى هو فى الواقع نتيجة للتعلق بركب الحضارة الأوربية واعتبارها النموذج واعتبار وقتها هو العصر لنا كما هو العصـــر لابنائها ، نقول هذا البديل الأول، والذى يعنى تقليد الغرب فى كل شىء ، يثير عددا من المفاهيم هى بالفعل موضع اهتمام عندنا منذ مائة عام أو تزيد ، ومن أهمها التجديد والتقدم والمعاصـــرة على ما يقولون • وليس من قبيل المصادفات أن من يدعون الى الاحتفاء بالحضارةاليونانية واتباع سننها هم فى نفس الوقت من السائرين وراء هذه الأعلام على النحو الذى رفعت عليه عندنا • وهكذا فان

مناقشة مكان الثقافة اليونانية على خريطة الوعى المصرى الحديث هو فى نفس الوقت تنـــاول لبعض جوانب هذه المفاهيم والمواقف ٠

ولكن الحق أن وراء هذا كله ما هو أهم وأهم ٠ ذلك أن الداعين الى الخط المذكور فى الفقرة السابقةوالسائرين عليه انما ينطلقون ، بغير وعى واضح فى معظم الأحيان، من افتراضـــات ذات خطـر عظيم ، وينبغى على الفكر التأصيلى (الفلسفى) أن يتناولهـا وأن يقف عندها وأن يرتفع منها الى مبادئها وأن ينزل الى نتائجها ، تلك هى الافتراض بأن الانسانية واحدة ، وأن هناك شيئا يسمونه العالمية ، وأن العقل الانسانى واحد وممتد المسيرة ٠ وما صلة هذا كله بموضوعنا ؟ الاجابة واضحة كل الوضوح، وتبدأ حيث انتهت كلمات الجملة السابقة ٠ فاذا كان العقل واحدا ، لأن الانسانية واحدة تعيش فى عالمية العصـــر الواحد ، فان مسيرة العقل الممتدة تلك انما بدأت عند اليونان ، هكذا يقول الغرب وهكذا يردد المقلدون تقليدا ، وهكذا يبدأ مستقبلنا باليونان وبما انتج اليونان ، على ما يتوهمون ٠

ونعود من آفاق المستقبلوالاختيارات الحيوية الىمستوى أكثر دعوة الى هدوء الخواطر ، حيث يتصلموضوع هذا البحث بمسألة هى فى القلب من الدراسات العلمية التى تتناول الانســان موضوعا لها ، وهى مسألة العلاقة بين

الثقافات وبين الحضارات : فهل تلك العلاقة ممكنة ؟ وهل هى مشروعة ؟ وعلى أى مستوى ؟ وبأى ثمن ؟ والى أى حد ؟ وذلك كله فى اطار الحاضر ، فى صلة ثقافة حالية بأخرى حالية أو بثالثة مندثرة ، أو فى اطار الماضى ، فى صلات الحضارات السابقة بعضها ببعض : المصرية باليونانية ، واليونانية بالرومانية ، والفارسية بالهندية ، والاسلامية بالمسيحية ، ثم بالأوربية ، الى غير ذلك . ومن المهم أن نحتفظ بهذه الأسئلة الجوهرية قائمة فى الذهن فى أثناء عبور مسار هذه الخواطر الحالية .

كذلك يثير بحثنا هـذا ، ولو من بعيد ، من جديد ، مشكلة قديمة ، هى مشكلة ما سمى باسم المعجزة الاغريقية، فلو كان هناك معجزة اذن فاليونان أفضل البشر ، بل هم البشر ، ولابد من الانضواء تحت رايتهم . ولايتضمن هذا موقفا بازاء طريق المستقبل وحسب ، بل ينطوى فيه تحقير لماضينا نحن القديم وماضى الحضارات الشـرقية التى نرتبط بها ومع أهلها الى اليوم وغدا بأشد الروابط : أليس كل ما قبل اليونان أعمال عبيد تحت سيطرة الخرافات من أجل منافع لاتعلو على مستوى الحياة اليومية ؟ هكذا يقول الآخذون بفكرة المعجزة الاغريقية فى آخر الأمر . ومرة أخرى يتضمن تحديدنا لموقنا من الحضارة اليونانية موقفا من المعجزة الاغريقية ومن أنفسنا فى ماضينا : فهل نأخذ بذلك الافتراض ؟ ان من يقولون بالأخذ عن اليونان تراثا انسانيا ونموذجا خالدا مضطرون الى الأخذ به ، والأخذ

به يعنى على الفور تحقير الذات فى هيئتها العتيقة وطعنا فى قدرتها فى الحاضر وتلويثا لجوهرها فى المستقبل ·

ويلمح القارىء من بين كل السطور السابقة أن الأفق الفعلى للبحث انما هو موقفنا من الحضارة الغربية التى تريد أن تعتبر ان اليونان هم سلفها الأعظم المباشـــر · والواقع أن تساؤلنا : ماذا نريد لأنفسنا فى المستقبل انما هو الوجه ، وظهره هو التساؤل عن موقفنا من الغرب بما يتضمنه من تحديد موقف من الثقافة اليونانية ·

هذه هى الأطر الخمسة أو الستة التى يتحرك بالاضافة اليها موضوع هذا البحث ، وهو مكان الثقافة اليونانية القديمة فى الوعى المصرى الحديث ·

ونتوقف قليلا ، قبـــل عرض المـواقف ، عند بعض التحديدات وعند بعض الاشـــارات المنهجية · وذلك أننا سوف نســـتخدم كثيرا اصـــطلاحات من مثل « الفكر » و « الثقـــافة » و « الحضـارة » فضلا عن « اليونان » و « نحن » · أما الفكر فاننا نقصـــد به : « مجمـوعة التصورات المتسقة التى تقدمها حضارة ، أو فرد ما ، عن العالم والانسان والمجتمع والاتجاهات المصـــاحبة لتلك التصورات » ، ومن المفهوم أن الفكر ، كنتاج ، هو بناء فوقى تنتجه حضارة ما ، وهو النشاط النظرى للانسان بازاء العالم والآخرين ، من بين أنشطة ثلاثية : المجابهة

والمعرفة والعمل ، وهو ما يؤدى الى موقف منظم للانسان بازاء الطبيعة والآخرين • ونقصد بالثقافة : « مجموعة النظم والقيم والأفكار والمعتقدات والفنـــون التى ينتجها مجتمع ما» • وأحيانا مانستخدم الحضارة مكان «الثقافة»، والأولى أعم ، وتضم الى جانب عناصر الثقافة المذكورة تلك العناصر المادية التى تكون البنية التحتية التى تقوم عليها الثقافة • ونقصد باليونان تلك الأمة المعروفة فى وقت ازدهار حضارتها القديمة ، أى ما بين القرن الســـادس والقرن الثالث ق•م• على الأخص • أما « نحن » فاننا نقصد بها ، أولا ، الكيان المباشر الذى ننتمى اليه ، وهو كيان مصر ، ذات الوجود الحى المتجدد منذ قديم ، ولكنها أيضا مصر متعددة الانتماءات ، ولذلك فاننا نقصد بها ، ثانيا ، ذاتا هى بسبيل التكون ، أى ذات الثقافة العربية الجديدة التى تنطلق ابتداء من الاشتراك فى اللغة وفى الارادة وفى المصالح المشتركة ، من فوق أرضية تاريخ مشترك ، والتى تتوجه نحو مستقبل مشترك موحد •

من جهة أخرى ، فان بعض الاتجاهات المنهجية هى التى تسند هذا الضرب من البحث الذى سنقوم به فى خلال هذه الصفحات ، ونظن أنها لازمة أيضا لحسن تفهمه عند القارىء الكريم • ونؤكد على اتجاهات ثلاثة على الأخص: الجسارة ، رفض الوضوح الزائف ، روح النقد الدائم • ذلك أننا نرفض لنا وللآخرين روح التقليد والســـكون ،

ونرفض أن يكون هناك فى عالم الفكر وعالم السياسة وعالم التوجهات القومية على السواء صنم أو أصنام يروض الخاضعون على عدم المساس بها ولو على سبيل الأحلام والتهيؤات ، ونؤكد فى المقابل على روح الجسارة التى تدفع الى اقتحام كل الميادين وتقلب كل الفروض ، ولا ترضى الا بالاقتناع العقلانى الذاتى المبنى على اختيار حر، بما فى ذلك الاقتناع والاقتناع المضاد· ولعل من أسس روح الجسارة اتجاها نفتقراليه كثيرا وعند الأكثرين،هوذلك الاتجاه الجدير بالروح الفلسفية الأصولية على الحقيقة ، والمتمثل فى رفض الوضوح الزائف ، أى رفض قبول القائم لا لشىء الا لأنه قائم وحسب ، بدون جسه واختباره والتأكد انه يقوم على أساس صلد وليس على أوهام نشرتها سلطة هذا أو ذاك ، وأنه ابتنى على علم وتدبر وتيقن وليس على جهل وتسرع مذنبين · أخيرا فاننا نقصد بروح النقد الدائم الاحتفاظ بحرية اعادة النظر فى المواقف والاختيارات بلا هوادة ولا سكون ، سواء مواقف الذات واختياراتها أم مواقف الآخرين واختياراتهم ، وذلك سلبا وايجابا على السواء ، أى بما يؤدى الى نبذ ما أخذ به أو الأخذ بما لم يؤخذ به من قبل ·

ثانيا : مداخل الوعى المصرى الحديث الى الثقافةاليونانية (جهات النظر ومدخلان ومرحلتان) :

لايزال دخول عناصر من الثقافة اليونانية العتيقة الى العالم الاسلامى القديم موضوعا يحتاج الى عشرات

المشاركات ، وهو لايزال فى بداياته الأولى ، واهتمـــام الغربيين به هو الظاهر ، واهتمامنا ، نحن خلف الحضارة الاسلامية القديمة ، به لايكون الا عارضا وفى تسرع ، وربما كان السبب ضرورة المعرفة الجيدة بأمور الحضارتين وهو غير متوفر الا عند اقل الأقلية ، وربما كان السبب هو ضعف الحس بأهمية دراسة التفاعلات بين الثقافات ، أو غير هذا السبب وذاك • ونكتفى فى هذا المقام باشـــارة عامة ، تقوم فى اننا يمكن أن نقول ان العقل الاسلامى لم يستطع أن يدرك كنه الثقافة اليونانية ، وما كان بمستطيع على كل حال ، وان سوء فهمه وقصور هذا الفهم بارزان حتى فى الميدان الذى اقترب فيه أكثر من غيره من اجتلاء حقيقة مواقف اليونانيين ، ألا وهو ميدان الفلسفة •وعلى كل حال فان هناك مدخلين كبيرين دخلت منهما العقول الاسلامية الى أبواب الثقافة اليونانية ، وهما على التوالى زمنيا : مدخل المنفعة ، مع الاهتمام بالطبيات والطبيعيات اليونانية ، ثم مدخل « الحقيقة الواحدة » ، أى ظن أن الحق واحد عبر عنه الوحى وعبر عنه العقل ، فهو واحد وان اختلفا فيما بينهما فى طرائق التعبير ، وفى هذا المدخل ما فيه من اخلاص فى المعتقد الفلسفى ، ولكن فيه ما فيه أيضا من ارادة بعض ممن غلبهم الاسلام وارادوا مع ذلك أن يتغلبوا عليه ، ارادتهم فى « الالتفاف » حوله بوسيلة تلك المعرفة الغريبة • وما أردنا ان نثير هنا هذا الموضوع بقصد

استيفائه ، ولكن لنضع جدارا خلفيا نقابل عليه المدخل الحديث للوعى المصرى الى الثقافة اليونانية التى ستبدو دائما ، وفى نفس الوقت ، وكأنها « شيء عرفناه » و«شيء عرفناه ولم نعرفه » ٠

ونبدأ هنا أيضا باشارة تجميعية الى ما نسميه « جهات النظر » الى الثقافة اليونانية ، ونكتفى بالوضع السريع ، ولابد للدراسة التفصيلية التاريخية للموضـــوع من أن تتوقف طويلا لاستجلاء المضامين والارتباطات والمغازى ٠ ذلك أننا يمكن أن نقول ان العقل المصرى الحديث أخذ فى التعرف ، أو فى أعادة التعرف ، على تراث الحضـــارة اليونانية من خلال « جهات النظر » التالية :

(١) ادراك الآخر غير المسلم ، وهذه الجهة تبدأ منذ الحملة الفرنسية ، ومنذ أن رأى القاهريون نساء الفرنسيين حاسرات الوجـــوه « لابســـات الفستانات » ، ورأوا أيضا آلاتهم العلمية ، بعد أن سمعوا ضربات مدافعهم ، وخبروا بعض تنظيماتهم ، وتمتد الى اليوم وغدا ، لأن الغرب لا يتركنا لشأننا ، ونحن مضطرون للأخذ بأدواته لرد عدوانه ، وملزمون بمعرفته ، على مستوى القادة منا ، لتحضير مستقبلنا ومستقبل الانسانية الجديدة (بالمعنى الحق لأول مرة) ٠ وفى اطار هذه الجهة للنظر يدخـــل اكتشاف الغرب واكتشاف ، أو اعادة اكتشاف ، اليونان

والتعرف على حضارات آسيا والدراسة العلمية لقارتنا افريقيا في نصفها غير المسلم الى غير ذلك ٠

(ب) نبش الماضى غير الاسلامى لمصر الشـــاملة ومتعلقاته ، ويدخل فى هذه الجهة معرفة مصر القديمة بأسرها ومصر القبطية ، ومن الطبيعى أن يتصل بهذا كذلك مصر اليونانية والرومانية ، والانتقال ابتداء من هذا الى معرفة بالحضارة اليونانية فى ذاتها أمر منطقى ٠

(جـ) العودة الى ممارسة الفلسفة ، بعد الهجوم السنى الساحق الماحق عليها منذ عصر ابى حامد الغزالى ، وكانت الفلسفة عند الاسلاميين هى فلسفة اليونان ، والفلســـفة الغربية ، التى يراد اقناعنا منذ ستين عاما او تزيد انها « الفلســـفة » بألف لام التعريف ، ترجع ، بقول اهلهـا انفسهم ، الى الثقافة اليونانية ٠

وهكذا يمكن أن نقول ان تعرف الوعى المصرى الحديث على حضارة اليونان وثقافتهم يندرج بقدر او بآخر تحت جهة أو أخرى من جهات النظر تلك ، والأدق أن نقول انه يندرج تحتها جميعا بنسب متفاوتة ٠

على أننا نريد أن نبرز أمرا ذا اهمية ، وهو أن هناك اختلافا جذريا بين مدخل الفكر المصـــرى الحديث الى اليونان ومدخل أسلافنا الاسلاميين القدماء اليهم : فقد

رغب هؤلاء ، أو بعض منهم على الأدق ، فى معرفة اليونان لذواتهم ، أى أنهم اتجهوا الى اليونان مباشرة (وان كان ذلك عن طريق وسيط أو وسطاء هم السريان وغيرهم) ، أما الفكر المصرى الحديث فانه اتجه الى اكتشاف اليونان لا لذواتهم ، بل لأنهم كانوا ، فيما يظن الجميع ، على صواب أو خطأ ، أساس الحضارة الغربية وأساس عصر النهضة الأوربية ، والحضارة الغربية هى الشغل الشاغل للفكر المصرى الحديث ، ان سلبا ، رغبة عنها ، وان ايجابا، رغبة فيها . وهذا ما نسميه « المدخل الغربى » الى الاهتمام بالثقافة اليونانية .

وليس عجبا ، على هذا الأساس ، أن نجد أول كتاب بالعربية ، على ما نعلم ، مخصص جميعه للحديث عن أشياء يونانية ، وان كانت سبيلا لعرض أفكار غربية حديثة، يدخل الى عالم اليونان من خلال عالم الفكر الغربى الحديث . ذلك هو كتاب رفاعة الطهطاوى « مواقع الأفلاك فى وقائع تليماك » ، المنشور فى المطبعة السورية ببيروت عام ١٨٦٧ م . ، وهو ترجمة عن الفرنسية لرواية فنلون (Fénélon) الشهيرة « مغامرات تليماك » ، وقام بها أستاذنا اللوذعى فى أثناء منفاه بالسودان ، فى عهد عباس وبأمر منه ، والذى استمر عامين ، وأراد بها رفاعة أن يشغل نفسه وأن يعزيها بهذه الترجمة التى خرجت فى حوالى ثمانمائة صفحة ، ومن المفهوم أن أفكار الكتاب انما

هى أفكار صاحبه فنلون (١٦٥١ ـ ١٧١٥ م ٠) وان وضعها فى اطار يونانى هو مغامرات تليماك ، ابن أوديسيوس بطل حرب طرواده ٠ ويثبت مانسميه « المدخل الغربى » الى الاهتمام باليونان ماجاء فى مقدمة رفاعة لترجمته حيث يقول : « ولما جاء الافرنج يحذون فى آدابهم حذو اليونان ، اتخذوا الخرافات اليونانية قدوة فى ذلك وأسوة ، وألفوا فيها تآليف تسمى الميثولوجيا ، ووقائع تليماك مشحونة بهذه الأشياء ، وما فيه من الآداب مبنى على الآداب اليونانية »(١) ٠ وما ترجمه رفاعة الا لمضمونه الغربى الذى يريد تعريف قراء العربية به ، فهو « مشتمل على الحكايات النفائس ، وفى ممالك أوربا وغيرها عليه مدار التعليم فى المكاتب والمدارس »(٢) ٠ ونفس هذا الموقف نجده وراء ترجمات أحمد لطفى السيد لبعض كتب أرسطو، فيقول فى الدافع الى ما فعل : « لما كنت مديرا لدار الكتب المصرية تحدثت مع بعض أصدقائى فى وجوب تأسيس نهضتنا العلمية على الترجمة قبل التأليف كما حدث فى النهضة الأوربية ، فقد عمد رجال هذه النهضة الى درس فلسفة أرسطو على نصوصها الأصلية ، فكانت مفتاحا للتفكير العصرى الذى أخرج كثيرا من المذاهب الفلسفية الحديثة »(٣) ٠ وهكذا ، فان « أستاذ الجيل » ، على ما سمى أحمد لطفى السيد ، والذى صرح تصريحا بأن الأوربيين هم « أساتذتنا » ، يجد أن النهضة الأوربية والمذاهب الفلسفية الغربية تقوم على أكتاف أرسطو

واليونان ، فلنتجه اليهم كما اتجه أساتذتنا ، ولكى نفهم المفتاح الذى أخرج فلسفات الغرب التى سوف يأخذ ببعضها « فيلسوف الجيل » . (ولا نناقش صحة مايقوله احمد لطفى السيد ، فكلامه فى الواقع لا يتطابق والتاريخ) .

أما المدخل الثانى الى الاهتمام بالثقافة اليونانية فهو مدخل طريف لايكاد يخطر على البال للوهلة الأولى ، ولكنه يشترك مع المدخل الغربى فى أنه هو الآخر غير مباشر، ذلكم هو ما نسميه المدخل الاسلامى ، وهو على مستويين: مستوى النموذج ومستوى الأهمية التاريخية. أما مستوى النموذج فنقصد به قولا واتجاها راج منذ العشرينات من القرن الميلادى الحالى ، ومفاده أن أحد أسباب ازدهار الثقافة الاسلامية هو أخذها عن اليونان ونقلها لعلومهم وفلسفتهم، ومهما يكن من مصادر هذا الاتجاه عند المفكرين المصريين وعند المستشرقين الغربيين ، ومهما يكن من صحته وخطئه، فانه سكن فى العقول أن ثقافة اليونان جديرة بأن « تحدث » نهضتنا الجديدة كما « سببت » نهضتنا الاسلامية التليدة ، وأضافوا ، توكيدا وايقانا ، بأنها كانت أيضا السبب فى النهضة الأوربية المعروفة ، وهكذا تظهر الثقافة اليونانية عنصرا خالدا دائم الحقيقة يخرج ثمراته فى كل الأجواء وفى كل حين . ويظهر هذا كله فى نص نكتفى به فى هذه العجالة ، وهو يلى مباشرة ما أثبتناه من حديث أحمد لطفى السيد الذى يأخذ بالقضية التى تجعل من الرجوع

الى نصوص اليونان علة للنهضة فى أوربا ، وهاهو يكمل فيشير الى القضية الأخرى : « ولما كانت الفلسفة العربية قد قامت على فلسفة أرسطو ، فلا جرم أن آراءه ومذاهبه أشد المذاهب اتفاقا مع مألوفاتنا الحالية ، والطريق الأقرب الى نقل العلم فى بلادنا وتأقلمه فيها ، رجاء أن ينتج فى النهضة الشرقية مثل ما أنتج فى النهضة الغربية »(٤) . ويرى القارىء أن هذه السطور تجمع مابين القضـــيتين معاً . (ومرة أخرى لا نناقش صحة ما يأخذ به أستاذ ذلك الجيل) . وهكذا كانت حالة الثقافة الاسلامية نموذجا لضرورة تتمثل فى الرجوع الى اليونان أول كل شىء من أجل احداث نهضة شاملة علمية .

أما المستوى الآخر ، مستوى الأهمية التاريخية . فان العقول المصرية التفتت اليه فى نفس الوقت المشار اليه ، وتحت تأثير مباشر هذه المرة من دراسات المستشرقين ، حيث دخلت حثيثا فكرة دراسة « الحضارة » ككل كمدخل عام لدراسة كل شىء ، وبدأ الانتباه الى مشكلة الصلة بين الحضارة الاسلامية والحضارات الأخرى ، وعلى الأخص حضارة الفرس وحضارة اليونان ، ولكن هذه الأخيرة فازت باهتمام أعظم من قرينتها الفارسية(وتفسير هذا أمر جدير بالدراسة لذاته) ، وتوجهت الأنظار الى دراستهامنوجهة الأهمية التاريخية هذه المرة ، أى من حيث انها كانت رافدا للحضارة الاسلامية ، فوجب معرفتها على نحو دقيق ،

وذلك مساهمة فى دراسة الحضارة الاسلامية ذاتها · وتحتل مجموعة كتب الأستاذ أحمد أمين ، وعلى الأخص « فجر الاسلام » الذى صدر فى عام ١٩٢٩ م · ثم « ضحى الاسلام » بأجزائه الثلاثة ، مكانا مرموقا فى هذا الاطار · فيقول طه حسين فى مقدمة الكتاب الأول عن القضية الأولى : « كل مايصلح موضوعا للدرس فى هذا الكون ·· لاينبغى أن ينظر اليه على أنه منقطع الصلة عما حوله ، وانما هو جزء من كل ، وليس الى معرفة الجزء سبيل اذا لم يعرف الكل ، أو اذا لم يعرف مايحيط به من الأجزاء الأخرى على أقل تقدير »(٥) ، ولهذا فانه يؤكد على أهمية ما صنعه أحمد أمين حين وصل بين الثقافة الأدبية والثقافة الدينية والفلسفية وصلا متينا(٦) ، وذلك فى اطار دراسة عناصر الحضارة الاسلامية ذاتها · ومن جهة أخرى يؤكد أحمد أمين نفسه على ظاهرة الاتصال بين الحضارات ، فيقول : « الثقافة اليونانية ، كالثقافة الفارسية ، كانت مبثوثة فى البلدان المختلفة ، وكان منالها منهم (أى المسلمين) قريبا »(٧) · ويضيف : « اذن ، فمن الخطأ البين الفكرة الشائعة أن العرب والمسلمين جميعا كانوا بمعزل عما حولهم من الثقافات والأديان الى العصر العباسى ، وأن آراءهم وآدابهم وعلومهم نبتت وحدها من عقول عربية ، من غير أن تتغذى بغيرها »(٨) ، بل ويتحدث عن اللقاح والتوليد بين الثقافات فى « ضحى الاسلام »(٩) · ويقول فى أول الفصل الثالث من الجزء الأول من نفس هذا

الكتاب الأخير ، وبعد الحديث فى فصلين عن الثقافتين الفارسية والهندية : « اذا نحن وصلنا الى اليونان ، فقد وضعنا أيدينا على كنز لا يفنى ، وثروة لا تقدر ، وغنى عظيم فى كل ماينتجه العقل والعـــاطفة والذوق »(١٠) ، ويلخص : « كان لهذه الثقـــافة اليونانية أثر كبير فى المسلمين ، ومما زاد فى أثرها أن اتصـــال المسلمين بها صاحب عصر تدوين العلوم العربية ، فتســـربت الثقافة اليونانية اليها ، وصبغتها صبغة خاصة ، كان لها تأثير كبير فى الشكل وفى الموضوع »(١١) . ونعقب على هذا كله بشيئين : الأول ، أن دراسة الحضارة على هذا النحو ابتدأت فى مصر ، على ما نعلم ،، فى هذا الوقت، وليس قبله ، بل ان هذا النوع من الدراسة حديث فى الغرب ذاته، ولايتقدم على أواخر القرن التاسع عشر الميلادى ، ولعله افتتح بكتاب بوركارت (J. Burckhard) الشهير عن « الحضارة فى ايطاليا فى وقت عصر النهضة » ، وبالتالى فان كتب أحمد أمين تمثل نقطة تحول فى مجرى الدراسات الاسلامية الحديثة منذ مبدئها . الأمر الثانى ، أن نتيجة هـــذا التحول فى منظور الدرس ادى الى زيادة الاهتمام بمعرفة الحضارة اليونانية فى ذاتها وككل ، وتطبيقا لمبدأ معرفة الجزء من خلال الكل الذى أشار اليه طه حسين .

هذان اذن هما المدخلان الى الاهتمام باعادة اكتشاف الثقافة اليونانية ، ويمكن أن نظن ، غير مكذبين ، وفى

انتظار دراسة وثائقية دقيقة شاملة ، ان العلامة الكبرى فى هذا التطور هو أحمد لطفى السيد وفى منتصف العشرينات على الأخص ، وتبعته فى هذا مدرسته ، التى أهم أعضائها طه حسين نفسه • وهكذا يمكن أن نقول ان هناك حتى الآن مرحلتين فى حركة انتباه الوعى المصرى الحديث الى الثقافة اليونانية : الأولى تمتد من الحملة الفرنسية الى ما قبل ظهور أحمد لطفى السيد على مسرح الفكر المصرى (فى عام ١٩٠٧ ، سنة ظهور جريدة « الجريدة ») ، والثانية تبدأ مع أحمد لطفى السيد وتمتد الى اليوم • ونتمنى أن نشهد بداية مرحلة ثالثة يتعدل فيها منظور الرؤية على النحو الذى سوف نقترحه فى القسم الأخير من هذه الدراسة •

ثالثا : هيئة الثقافة اليونانية فى مرآة الوعى المصرى الحديث :

كان الغرب ، الى ما قبل دقات مدافع بونابرت فى معركة امبابة ، هو الآخر المطلق ، هو الخصيم الذى لايستحق الاهتمام ، هو « الكافر المعاند » ، على ما استمر يقول رفاعة ثلاثين عاما من بعد ذلك ، وتغيرت أمور، وجاء الاحتلال البريطانى ليتوج انتصار الحضارة الغربية الأقصى ، ولترتفع فى نفس الوقت على التقريب صيحة الاحتقار المقابل : « الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا »

عند شاعر التفوق الانجلو سكسونى كبلنج • فماذا كان رد الفعـــل عندنا ؟ قد توافق أو لاتوافق ، قد تحزن أو قد لاتتعجب ، فان الاجابة كانت طلب الاعتراف من ذلك الآخر القوى، والذى أصبح النموذج والقدوة• ويمكن أن نضعها، تلك الاجابة ، فى عبارة فيها بعض المبالغة لكنها لاتبتعد الا قليلا عن الواقع النفسى والعقلى (المستمر الى اليوم ولكن على نحو مقزز وحتى فى صـــميم تفاصيل الحياة اليومية) ، وتقول : « بل نحن منكم » ، وقد سبق لنا اثبات قول أحمد لطفى السيد حول تلمذتنا على الغرب ، وفى نفس هذا الاتجاه سيستمر طه حسين وكتابه « مستقبل الثقافة فى مصر » على وجه الخصوص • وحيث انالغرب هو استمرار لليونان ، فان علينا أن نأخذ بانتاج الثقافة اليونانية الخـــالدة لنجعله جزءاً من تراثنا ، وعمـــادا لثقافتنا • وفى هذا الاطار يوضع اهتمام طه حسين الشديد بتأسيس الدراسات اليونانية واللاتينية (المسماة أحيانا بتسمية تحتاج الى تعليق طويل ، وهى « الكلاسيكية » فى الجامعة المصرية •

ويهمنا الآن أن نمضى مباشرة الى هذا السؤال : كيف نظر المصـــريون فى العشــرينات وما تلاها الى الثقافة اليونانية والى اليونان ؟ والاجابة هى أنهم أخذوا عن الغرب تصوره « الكلاسيكى » عن الحضارة اليونانية ،كما حدده جوته ومعظم القرن التاسع عشر الميلادى ، أى التصور

التمجيدى لليونان ، الذى يجعلهم أمة العقل والحرية والفردية ، لكى نقتصر على أبرز القيم وأهمها ، وماعداها هو نتيجة لها • وقد كان من الطبيعى أن يكون هذا هو الحال ، لأن الصورة الأخرى عن اليونان ، والتى كان الغرب يبدأ فى تركيبها عن اليونان منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادى ، ونتيجة لابحاث نيتشه الالمانى وفريزر (Frazer) الانجليزى وغيرهما من الكتاب الباحثين وعلماء الانثروبولوجيا ، هذه الصورة الأخرى ، التى تظهر الجانب اللاعقلى والمظلم فى الروح اليونانية ، وهو الذى أنتج الديانات السرية والكوميديا ، لم تكن قد وصلت بعد أصداؤها الى المفكرين المصريين ، وما كان لهم أن يعبأوا بها وهى لم تزل بعد صرخة فى واد ، بل تستطيع أن تقول ان التصور التمجيدى للحضارة اليونانية لايزال هو السائد والمسيطر باحكام على دراسة تلك الحضارة وتدريسها فى المعاهد العلمية على اختلاف درجاتها ، فى مصر ، الى اليوم •

فما هى عناصر تلك النظرة الى الثقافة اليونانية والى الانسان اليونانى ، كما وضعها زارعوها فى مصر الحديثة، وكما استمر عليها المفكرون والكتاب والأساتذة الأكاديميون ؟

فيما يخص النظرة الى الثقافة اليونانية ، فانه يمكن تجميع عناصرها فيما يلى :

- فهى ، أى ثقافة اليونان ، بداية الانسانية الحقة ·
- وهى ثقافة العقل والوضوح ·
- وهى ثقـــافة خالدة تتعدى مـــكانها وزمـــانها المخصوصين ·
- وهى لهذا أساس العالمية فى الفن والفكر والعلم ·
- وهى لهذا كله منبع مســتمر ونموذج دائم واجب الاحتـــذاء ·

وأما عناصر النظرة الى الانســـان اليونانى ، التى نشرتها مدرسة أحمد لطفى السيد ، فيمكن أن تصاغ على النحو التالى :

- اليونانى يمثل الانسانية الكاملة ·
- وهو نموذج الانسان الخلاق ·
- وفيه تتجسد قيمة الحرية ·
- وتتجسد فيه كذلك قيمة الفردية ·
- وهو الانســـان العقل ان أمكن اســـتخدام هذا التعبير·

ولن نفصل فى هذا المقام فى هذه العناصر أو تلك لأن التفصيل فيها يحتاج الى أضعاف هذه الدراسة الحالية، ولعلنا نعود الى ذلك فى موضع آخر ·

وقد سبق أن أشرنا الى بداية النظرة التمجيدية لليونان عند أحمد لطفى السيد ، وهى نظرة انتشرت ، واعتبرت وكأنها مبدأ مقرر عند كل من ساهم فى الثقافة المصرية الحديثة على الطريقة الجديدة · ولعلها بلغت أوجها عند دارسى الفلسفة على الأخص · فانظر الى الدكتور عبد الرحمن بدوى فى تصديره شبه الشاعرى لكتابه « ربيع الفكر اليونانى » : « هاهنا معبد الروح ، فطوبى للداخلين ، وهاهنا **ميلاد العقل** ، فهلموا نحتفل به يامن بالعقل تؤمنون · هلموا ، فهنا ، فى لحظة قدسية عالية ، اهتزت الروح الانسانية **لأول مرة** هزة الخلق ، فانتفض عنها جنين العقل ، وبالعقل كان **الانسان الأعلى** ·· هنا **أنبياء العقل الأزلى الخالد** ، أرسلهم فى ساعة السرور المقدس ، كى ينفخوا فى الانسان روح الحرية والنبل والقداسة ، روح الحق والخير والجمال » · ثم يقول عن السفسطائيين : « هنا أزمة ، **أزمة الانسان وقد اكتشف لأول مرة نفسه** ·· فالآن ، لتخرج الروح اليونانية ، بل **الروح الانسانية بأسرها** ، من ربيع نموها ، كى ترتفع الى صيفها وتمام نضجها ·· فقد هداها السفسطائيون الى **الانسان** · قائلين : من هنا الطريق » (يسجل المؤلف تاريخ ديسمبر سنة ١٩٤٢ وقتا لكتابة تصديره ، والتخطيط تحت الكلمات من فعلنا نحن) ·

ونفس هذه النغمة نجدها فى مقدمة لكتاب آخر يقول فيها مؤلفه : « نحن نؤرخ فى هذا الـكتاب لنشأة الفكر الفكر الفلسفى فى اليونان ، كيف عالج العقل الانسانى ، لأول مرة فى تاريخ البشرية ، ومتمثلا فى أمة اليونان ، مشاكل الوجود .. » . ثم يقول : « على يد هؤلاء الأوائل من فلاسفة اليونان ، انعكس العقل الانسانى على ذاته ، ورأى أن يتلمس الحقيقة فى ذاته » ، ليخلص الى القول : « فهؤلاء المعلمون الأول .. مشيخة الفلسفة القدامى ، ورواد العلم الطبيعى والميتافيزيقى والرياضى ، وسدنة العقل ومشيخة الفكر » (على سامى النشار ، « نشأة الفكر الفلسفى عند اليونان » ، الطبعة الأولى ١٩٦٤ م . ، الاسكندرية ، مقدمة الكتاب بغير ترقيم) .

ونتساءل الآن : فيم تجسد هذا الاهتمام بالثقافة اليونانية ؟ ولن نعرض هنا بالتفصيل للشكل التنفيذى لترجمة ذلك الاهتمام بالوقائع ، ونكتفى بالاشارة الى رؤوس الموضوعات : فعلى رأس قائمة الاجراءات التنفيذية يقف انشاء قسم الدراسات اليونانية واللاتينية بالجامعة المصرية ، وبعده تقف حركة ترجمة النصوص التى بدأها ، على نحو أو آخر ، أحمد لطفى السيد وطه حسين أنفسهما ، وبعدها نجد حركة نشر الكتب فى موضوعات الحضارة اليونانية ، ثم نشر المقالات فى المجلات والصحف السيارة .

وانمـــا نجيب هنـــا علـى ذلك السؤال الســـابق مفهوما على أنه يتنـــاول « مواطن » الاهتمــــام الأقوى والأضعف : وهنا يمكن أن نحدد ميادين الاهتمام كما تجلت عند جمهور المثقفين على النحو التالى بادئين بما احتل درجة أعلى فنزولا حسب الدرجات :

- الفلســـــفة
- الأدب
- التاريخ والسياسة
- الفن
- الدين

ولن نستطيع تفصيل القول فى ذلك هنا ، لأن الموضوع لايستلزم أقل من عرض كل انتاج الدراسات اليونانية فى مصر فى الستين سنة الأخيرة على الأقل ٠

ولم نشر فى هذه القائمة الى دراسة اللغة اليونانية ، لأنها موضوع أكاديمى ، ولاتهمنا هنا الدراسات الأكاديمية بذاتها ، الا اذا خرجت الى خارج أسوار الجامعة وشاركت فى صنع الوعى العام ٠ ونقول بصفة عامة ان الدراسات الأكاديمية للحضـــــارة اليونانية وتلك الرومانية لم تقم بواجبها الذى كان مرجوا منها ، لا فى اطارها التخصصى ولا على مستوى الوعى العام ، حيث لم تتبع خطة كانت

تفرض نفسها ، وتقوم فى ترجمة النصوص عن أصولها اليونانية واللاتينية على نحو شامل ، وفى مساندتها بدراسات تاريخية متتالية حول شتى جوانب الحضارة اليونانية وتلك الرومانية ، ولولا جهد طه حسين نفسه وانتاج بعض تلامذته فى هذين الاتجاهين ، لبقى الميدان محصورا فى عدد من الترجمات عن اللغات الأوربية ، قام بها بعض المتخصصين وبعض الهواة ، واستمر الحال كذلك حتى منتصف السبعينات ، حين بدأت حركة جديدة من تلامذة الجيل السابق، الذى تتلمذ هو نفسه على طه حسين، تعلن عن نفسها ، ولكن على نحو يميل الى الفردية ويفتقر الى الخطة طويلة النفس (ويدخل فى هذا الاطار جهدنا المتواضع فى ترجمة أفلاطون عن اليونانية مباشرة ، وقد ترجمنا له ست محاورات بالفعل) •

ونختم هذا القسم الثالث بفكرتين هامتين • الأولى أن بعث الاهتمام بالثقافة اليونانية واعادة اكتشافها ونشر مأثورها يعد ضمنا تعبيرا ، أو هو وسيلة للتعبير غير المباشر ، عن اتجاه يريد أن يؤكد على أهمية الفكر ، وذلك فى اطار خلفية كانت لاتعنى الا بالدين والسياسة والشعر، وواقع لايهتم الا بتسيير أمور الحياة اليومية ولايتطلع الى ما هو أعلى •

الفكرة الثانية ترتبط بالأولى وتشير الى اتجاه أعم ، وهو يتلخص فى أن بعث عناصر الثقافة اليونانية كان اجراء « تكتيكيا » كما يقال فى لغة السياسة والحرب ،

وذلك كجبهة ينشر من خلالها أصحاب هذا الاتجاه أفكارهم التى تتعدى محض الاهتمام بالثقافة اليونانية الى ما هو أخطر وأهم وأعم ، ألا وهو وضع أسس لعصر التنوير العقلى ، وذلك بقصد التحرر من أسر التقليد بأنواعه ، مستعينين فى هذا بأمر سيصعب على أصحاب التقليد أن يعارضوه ،لأنه سبق أن تواجد فى الحضارة الاسلامية التقليدية ، ألا وهو الأخذ ببعض عناصر الثقافة اليونانية (على نحو ماظن هؤلاء وأولئك) • ومما هو جدير بالانتباه أن الموجة الأولى ، والأكبر ، للدعوة الى الأخذ بالروح اليونانية تتعاصر مع عصر التوجه الليبرالى والتنويرى فى المجتمع المصرى الحديث (١٩٢٣ ـ ١٩٥٢ م) •

رابعا : نقد التوجهات السائدة والاشارة الى موقف جديد

نود أولا أن نضع فى اقتضاب شديد الاطار العام للموقف الذى نقترحه بازاء الثقافة اليونانية القديمة • فنحن نرفض فكرة « الانسانية » الواحدة ، لأن القائم بالفعل انما هو وحدات أهمها الأمة ، والأمم تصنع حضارات ، ولا يوجد « انسان » واحد مزعوم ، لأن الانسان القائم بالفعل يتكون من عنصرين متكاملين لا ينفصلان : تكوين طبيعى واضافة ثقافية تختلف من حضارة الى أخرى ، ولاشك أن التكوين الطبيعى مشترك بين البشر جميعا ، ولكنهم لا يتشابهون كلهم ثقافيا ، ونرى أن الأمة

من مجموع البشر ، أو من التشابه فى التكوين الطبيعى وحده ، الى مفهوم مزعوم عن « الانســـــان » العام أو « الانسانية » هى نقلة غير مشروعة ، وان كان هناك مكان لانسانية واحدة فى المستقبل حين تسود حضارة واحدة وثقافة واحدة على ظهر الأرض ككل ٠ ولكن هذا المستقبل لايزال بعيدا بعيدا ٠

كذلك فاننا نرفض فكرة « العقل » الواحد ، لأن العقل الطبيعى ، وهو احد عناصر التكوين الطبيعى المشترك بين بنى البشر ، ليس كل شىء ولاهو حتى أهم شىء ، لأن الأهم والحاســـم انما هو التكوين الثقافى لذلك العقـل الطبيعى الذى هو اقرب مايكون الى الامكان الخالص أو المادة « الخام » ٠ وهكذا فان مرجع العقل ، وما ينتجه من علم وفكر ، انما هو الثقافة ، وهناك «عقل» بعدد الثقافات ، وبالتالى فما ينتجه عقل ثقافة أمة ما هو بالضرورة مختلف عن عقل ثقافة أخرى ، ولايمكن ان يكون لهذه عقل الأخرى ولا العكس ٠

ويظهر مما سبق أن الفكر لاينبغى أن يفهم الا فى اطار الثقافة ، والثقافة هى دائما ثقافة أمة بعينها ، فلا يمكن لفكر ثقافة أن يكون لثقافة أمة أخرى ، وحتى اذا ظهر أن هذا « واقع » هنا أو هناك ، مثل اخذ الاسلاميين بفلسفة اليونان ، أو اخذ المصـــريين الحاليين بمحتويات عقـل

الغـــرب ، فان هذا لا يدل على كبير شيء ، لأنه بمنتهى البساطة « غير مشروع » • وهو واقع فى طريق مسدود، ومصيره الفشل بالحتم ، كما حدث لمصير الفلسفة اليونانية فى العقل الاسلامى الذى لفظها ، وكما سيحدث بالضرورة لمصير المستورد الغربى فى العقل المصرى حين يصل الى عصر الاستقلال والكرامة • ونحن نفرق هنا تفرقة أساسية بين « ما يخصنا » و « مايهمنا » ، وسنعود الى هذه التفرقة بعد حين •

وينتج من الاعتبارات السابقة أننا نعتبر الأخذ بالثقافة اليونانية وكأنها تراث عالمى لنا وللجميع ، وانها ينبغى أن تكون موضوعا لدراسة كل من يريد أن يكون ممن يعلمون ، نعتبر ذلك أمرا غير مشروع ، حتى وان ظنه آلاف وآلاف ، وجرت فى اطاره ملايين الصفحات ، وذلك اعتمادا على ما أشرنا اليه من رفض « الانسانية » الواحدة و « العقل » الواحد المزعومين •

ونضيف أن ذلك غير ممكن ايضـــا ، بعد كونه غير مشروع • فتلك ثقافة ماتت وشـــبعت موتا ، وتحجرت وأصبحت فى متحف التاريخ ، وكان آخر أيامها تلك السنة ٥٢٩ ميلادية ، حين أغلق الامبراطور يوســتنيان آخر المدارس الفلســفية الوثنية فى أثينا • وكل محـــاولة موهومة « لاحيـــاء » تلك الثقافة هو أمر لا يدل الا على

الجهل العميق بأساسيات الثقافة البشرية. ومن جهة أخرى، فان ثقافة أمة ما هى جزء جوهرى من حضارتها ، كما أن الفكر جزء جوهرى من الثقافة ، والحضارة دائما هى حضارة أمة معينة ، وهكذا فلن تأخذ فكرا بغير أخذك لثقافته وحضارته ، ولن تستطع الأخذ بشىء من ذلك جميعا الا الأمة المعينة صاحبة الحضارة . وعلى هذا الضوء نفهم مصير الفشل الضرورى لأخذ بعض الاسلاميين ، وهم فى النهاية آحاد أو عشرات ، بأفكار من ثقافة حضارة الأمة اليونانية . ونستطرد لنقول ان الموقف هو هو حتى لو كانت الثقافتين حيتين فى نفس الوقت أو الآن ، ولا نقول ما يقول بعض غير المنتبهين : « فى نفس العصر » ، وهو حال ثقافتنا الوليدة الحالية والثقافة الغربية التى تهدف الى السلطان الكلى والهيمنة الشاملة ، بل ونذهب الى حد القول ان العلم الطبيعى الغربى نفسه ليس ، ولا يمكن أن يكون ، علما كليا عالميا ، لأنه علم ثقافة بعينها هى الثقافة الغربية ، نقول هذا حتى وان كان يدرس صباح مساء فى مئات المعاهد عندنا وعلى ملايين التلاميذ والطلاب ، فالظاهرة الفاسدة فاسدة وغير مشروعة وان قبل بها الملايين ، أو لم يكن هذا حال كروية الأرض وانبساطها وحركتها وسكونها وموقعها من الشمس فى وقت ما ؟

فالأخذ بالثقافة اليونانية نموذجا وتراثا « يخصنا » أمر غير مشروع وغير ممكن . وهو كذلك أمر خطر يخاف

منه التهلكة ، وهذا للاعتبارات التالية التى نسردها بايجاز سريع :

١ ـ فهو مخالف للحقيقة ، وكل مخالفة للحقيقة تبعث على الخطر ٠

٢ ـ وهو حين ينكر اختلاف الثقافات وتمايزها يعتدى على مبدأ الحرية والمساواة بين الأمم ويقيم سلطان السيادة والسيطرة والغلبة تحت اسماء ما لها من سلطان ٠

٣ ـ ولأنه يؤدى فى النهاية الى وأد ينابيع الابداع لحضارتنا الجديدة الوليدة ، والتى يمكن أن يؤمل لها أن تكون داعية الى انقاذ البشرية (أى مجموع البشر لا أكثر) من جنون محتم أو عبودية لازمة ان استمرت ظاهرة السيطرة الغربية عليها ٠

وقد سبق لنا أن اثبتنا سريعا الخصائص المزعومة للثقافة اليونانية وللانسان اليونانى القديم ، ونحن لانوافق على صحتها ، فيماعدا قضية أو قضيتين (الحرية والفردية) ٠

واذا كان لنا أن نضيف شيئا الى ماسبق ، فهو القول بأن زعم عالمية الثقافة اليونانية وخلودها وقيادتها الدائمة

للانسانية انما هو حصان طروادة الجديدة للسيطرة الغربية .

والآن : ما معنى كل ما سبق وماذا يمكن أن يؤدى اليه من نتائج فى النظر وفى العمل على السواء ؟ هل هى دعوة جديدة الى غلق الابواب والنوافذ ؟ هل نغلق أقسام الدراسات اليونانية واللاتينية بجامعاتنا ونحرم تدريس الفلسفة والأدب والفن بأنواعه عند اليونان ؟ هل نحظر ترجمة نصوصهم وأى شىء عنهم ؟

كلا بالطبع ، لأن العقل المصرى ، ممثلا وطليعة للثقافة العربية الجديدة الوليدة ، هو عقل انفتاح دائما حين يكون مالكا لنفسه أو حين يجتهد لأن يكون كذلك ، وهو حالنا هذه الأيام . انما الذى نطلبه وندعو اليه هو تحويل المسار وتغيير النظرة واعادة التقييم . ولن نكرر ماذكرنا من اعتبارات نظرية ، وانما نضع الأمر وضعا جديدا حين نفرق بين « ما يخصنا » و « ما يهمنا » . فالذى يخصنا هو الذى ينتمى الى امتنا ، والذى يهمنا أو قد يهمنا هو ماينتمى الى أمم اخرى وثقافاتها . ونسارع ونقول اننا نضع أمور الحضارتين الغربية الحديثة واليونانية القديمة فى مقدمة « مايهمنا » . وذلك لاسباب مختلفة فيما يخص الحضارتين ، فالحضارة الغربية مما يهمنا ، والى اقصى حد ، لأنها مصدر عدوان دائم علينا ، والحضارة اليونانية

مما يهمنا ، والى أبعد حد ، لأننا ، فى مصر القديمة ، قد أثرنا عليها أعظم تأثير حين كانت بسبيل التكون ، كما أن اليونان غزونا وحكموا مصر لعشرات السنين وأثروا فى بعض جوانب حياتها وثقافتها ، بالاضـــافة الى التأثير العظيم للعلم والفلسفة اليونانية فى الحضارة الاسلامية. وهكذا فاننا ينبغى أن نهتم بالدراسات اليونانية ، ترجمة للنصوص وتعريفا بها وتأريخا لجوانبالحضارة الاغريقية، على سبيل دراسة الآخر المهم ، وليس على ســـبيل نقل لنموذج أو لتراث عالمى مزعوم • هذا هو الموقف المتوازن الذى ندعو اليه ، وهو يحترم رغبتنا القوية فى معرفة كل شىء على الاطلاق من جوانب الكون ، طبيعة وبشرا فى الماضى والحاضر ، ويحترم فى نفس الوقت اســـتقلالنا وكرامتنا ويوفر الدواعى لقيام ابداع مصرى ، ثم عربى ، جديد ربما أمكن أن نقول انه لميكد يبدأ حتى الآن الا على على هيئة المشيئة ، لأنه ، وتلك قصة أخرى ، سقط فى خلال الأعوام المائة الأخيرة فى شباك عالمية مزعومة هى فى الواقع الأداة الفكرية للسيطرة الغربية •

الهوامش :

(١) « مواقع الافلاك فى وقائع تليماك » ، المطبعة السورية ببيروت ، ١٨٦٧ ، ص ٢٧ ·

(٢) نفسـه ، ص ٢٤ ·

(٣) أحمد لطفى السيد ، « قصة حياتى » ، كتاب الهلال ، فبراير ١٩٦٢ ، ص ١٦٨ ·

(٤) نفس المكان ·

(٥) أحمد أمين ، « فجر الاسلام » ، ص ح من المقدمة ·

(٦) نفسه ، ص ى ·

(٧) نفسه ، ص ١٣٣ ·

(٨) نفسه ، ص ١٣٤ ·

(٩) أحمد أمين ، «ضحى الاسلام» ، الجزء الأول،ص ١٦٣ ·

(١٠) المرجع السابق ، ص ٢٥٣ ·

(١١) نفسه ، ص ٢٧٤ ·

المحتويات

رقم الايداع ١٩٩٢/٥٦١٩

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 3630 — 7

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

يحاول هذا الكتاب الإجابة عن سؤال . ما الشروط اللازمة بانواعها لقيام فلسفة بل فلسفات مصريه ؟ .
وهو يحتوى على ثلاث دراسات الأولى تعرض خطوطاً رئيسية لتصور عن ماهية الإبداع قبل الحديث عن شروط الابداع الفلسفي ، وتؤكد — خاصة — على اوهام العالمية ، والعقل الواحد والعصر الواحد ، باعتبارها جميعا وسائل لسيطرة الحضارة الغربية علينا . وفي الثانية محاولة لوصف الأزمة المستمرة ، ورغم كل مظاهر القوة المزعومة ، لحضارة الغرب ولردها إلى أصول تفسرها ، كما تتناول الثالثة تشابك الموقف من اليونان ومن الغرب والتساؤل عن مستقبلنا عامة .

الكتاب القادم

النماذج البشرية في السينما التليفزيونية (دراسة وتحليل)
د . سامية أحمد على

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب